

التسرات المخطوط

رؤية معرفية في التبصير والفهم

(1)

علوم الدين لحجة الاسلام

أبي حامد الغزالي

دكتور

خالد حربي



إهداء 2006

الأستاذ الدكتور / خالد أحمد حربي
الإسكندرية

التراث المخطوط

رؤية فى التبصير والفهم
مستقلة عن النمط الاستشراقى

(1)

علوم الدين لحجة الإسلام
أبى حامد الغزالى

تأليف

الدكتور

خالد أحمد حسنين على حربى
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الطبعة الأولى

2004

الناشر

دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

تليفاكس: 5274438 الإسكندرية

الناشر: دار الوفاء لنديا الطباعة والنشر

العنوان: بلوك ٣ ش ملك حفنى قبلى السكة الحديد - مساكن

درباله - فيكتوريا - الإسكندرية.

تليفاكس: ٥٢٧٤٤٣٨ / ٠٠٢٠٣ (٢ خط) - موبايل / ٠١٠١٢٩٣٢٣٣

الرقم البريدى: ٢١٤١١ - الإسكندرية - جمهورية مصر العربية.

E- mail

dwdpress@yahoo.com

dwdpress@biznas.com

Website

[http:// www.dwdpress.com](http://www.dwdpress.com)

عنوان الكتاب : التراث المخطوط رؤية معرفية فى التبصير والفهم (١) علوم

الدين للغزالي

المؤلف: د. خالد حربى

رقم الإيداع: ١٩٧٩ / ٢٠٠٥ م

الترقيم الدولى: 6 - 542 - 327 - 977

بسم الله الرحمن الرحيم

"لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولَى الْأَلْبَابِ مَا كَانَ
حَدِيثًا يُنْتَرَى وَلَكِنْ تَصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ
كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ"

(سورة يوسف، آية 111)

مقدمة وأهداف الكتاب

من الثابت أن التراث يمثل ذاكرة أى أمة من الأمم، وعليه، فإن أى أمة تحاول أن تهمل أو تنسى أو تنسى تراثها، تكون بمثابة الإنسان الذى فقد ذاكرته، وتراه يترنح بين لحظات الحاضر بدون أى وعى بماضيه أو مستقبله، والنتيجة النهائية لمثل هذا الوضع - إن لم تسترد الذاكرة - هى "فقدان الذات" أى فقدان الماضى والحاضر والمستقبل. فكان التراث يمثل أساساً قوياً فى حاضر الإنسان، وفى الوقت نفسه يدفعه إلى المستقبل.

ومن هنا يأتى الاهتمام بأهمية التراث العربى الإسلامى، خاصة وأن هذا التراث يحتل مكاناً مرموقاً فى تاريخ العلم العالمى - مجال اهتمام العالم المتقدم حالياً -، ويمثل حلقة مهمة جداً - إن لم تكن أهم الحلقات - فى سلسلة المعارف والحضارة الإنسانية بصفة عامة، وذلك يرجع إلى أن تراث الحضارة العربية الإسلامية قد ساد البشرية أطول من تراث أى أمة أخرى، فعلى مدار أكثر من ثمانية قرون كان العلم على مستوى العالم "ينطق بالعربية".

وعلى ذلك فإن إحياء (وتفعيل) التراث العربى الإسلامى واجب قومى - على مستوى الأمة الإسلامية، وليس على مستوى القومية العربية فقط - يجب أن تستثار لأجله الهمم، وتكثف لأدائه الجهود. وبالفعل هناك جهود تبذل فى سبيل الاهتمام بما تمتلكه الأمة من المخطوطات العربية الإسلامية المبعثرة فى جميع أنحاء العالم، فهناك جهود مؤسساتية على مستوى الجامعات والمراكز العلمية الأكاديمية، وجامعة الدول العربية بالإضافة إلى الجهود الفردية.

لكن اللافت للنظر أن الشق الأكبر من هذه الجهود قد تركز على الاهتمام بجمع المخطوطات وتصويرها من هنا وهناك وفهرستها، ثم

تخزينها على رفوف المكتبات، أو عرضها في متاحف كالأثار المادية المجسمة، بل وعقد المؤتمرات الدولية التي تُخصص (لعرض) صفحات من المخطوطات، بدون أدنى تعرض لدراسة محتواها المعرفي والعلمي. وتلك هي الحالة السائدة والغالبة على التعامل مع المخطوطات العربية الإسلامية، وذلك منذ أن بدأ هذا التعامل - بتوجيه من الاستشراق - مع منتصف القرن التاسع عشر وحتى الآن.

أما الشق الأصغر من الجهود، وهو (الأهم)، فيتمثل في فهم وتحقيق ونشر المخطوطات. ويتبين حجم هذا الشق إذا علمنا أن نسبة ما حُقِّق ونُشر من مخطوطات تراثنا العربي الإسلامي حتى الآن لا تزيد على ستة فى المائة (6%)، وما زالت النسبة المتبقية فى صورتها المخطوطة، وخاصة المخطوطات العلمية. وسوف أُشير أهم أسباب ذلك فى موضع لاحق.

فإن سأل سائل بسؤال واقع: لماذا توجه الجهود العظمى إلى الفهرسة وملحقاتها، ولا توجه إلى التحقيق والنشر؟ أجبت بأن الفهرسة وما يلحق بها من متاحف ومعارض، يُعد عملاً (عضلياً) يعتمد فى المقام الأول على النواحي المادية، ويمكن أن يقوم به أى فرد. فى حين يُعد الشق الثانى الخاص بالدراسة والتحقيق عمل (علمى وفكرى، دقيق وشاق)، وشأن ما بين العمل العضلى والعمل العلمى، خاصاً إذا كان دقيقاً وشاقاً، والمعتبر أن يتدبر ويعى!.

إننى أتصور أن الشق الأول الخاص بالفهرسة وملحقاتها من معارض ومتاحف المخطوطات يعمل فى إطار توجه استشراقى موجه، إذ إن المستشرقين منذ أن عاودوا التنقيب فى المخطوطات العربية الإسلامية

إبان منتصف القرن التاسع عشر، أرادوا من العرب والمسلمين أن يتعاملوا مع مخطوطاتهم هكذا، بدون التعرض لدراسة المحتوى العلمى أو المعرفى للمخطوطة، أو محاولة معرفة كيف وصل العالم أو المفكر العربى، والمسلم لما وصل إليه فى مخطوطته، وذلك يتطلب التساؤل والبحث عن المنهج الذى انتهجه هذا العالم أو ذاك المفكر. وما هى القيمة العلمية أو المعرفية لما وصل إليه، فهل خضع خضوعاً تاماً لأبحاث وأفكار علماء عصره وسابقه، أم طورها، أو عدّلها أو حتى ألغاها وأتى بجديد؟

كل هذه الأسئلة وغيرها من المفروض أن تدخل فى صميم منهج تحقيق ودراسة المخطوطات، وذلك ما لا يريده المستشرقون الغربيون، وإنما يريدون أن يظل العرب والمسلمين يفهرسون ويعرضون ما لديهم من مخطوطات كما يستمروا فى التفتنى بمآثر الأجداد، وهم فى مثل هذه الحالة (المقصودة) يكونون كمن يفخر بالبطل ولا يعرف (ولا يفهم) سبيل وكيفية الوصول إلى البطولة.

إن ما يؤيد ويعزز طرعى هذا، إننا نرى بين الفنية والفنية ظهور أكثر من فهرس لمكتبة مخطوطات واحدة، فتنشأ المعارك الفكرية (الهزلية) - التى تأتى على هوى الاستشراق - بين من قام بالفهرسة، وبين من يريد أن يفهرس من جديد بحجة أن المفهرس الأول وقع فى أخطاء (إحصائية)، وسقط من فهرسه مخطوطات موجودة فى المكتبة. فما يكاد يظهر فهرس المفهرس الأول، حتى نرى فهرس المفهرس الثانى وهكذا دواليك، وخير وأحدث مثال على ذلك فهرسا مخطوطات المكتبة المركزية بجامعة الإسكندرية، إذ نُشر الفهرس الثانى فى مدة لا تتجاوز أربعة أو خمسة أعوام من نشر الفهرس الأول. وربما يقوم مفهرس ثالث بنشر فهرس

جديد فى المستقبل القريب، مع العلم أنه كان يوجد فهرس (قديم) لهذه المكتبة - الذى اعتمد عليه أئمة المحققين من جيل الرواد أمثال: محمود شاكر وعبد السلام هارون، وغيرهما.. ومن المستشرقين ماكس مايرهوف - مثلما كان يوجد فهرس (قديم) أيضاً لمكتبة المسجد الأحمدى بطنطا، ومع ذلك نُشر فهرس جديد. وهذا الكلام ينطبق على عدد كبير من مكتبات المخطوطات، ليس فى مصر فحسب، بل وفى العالم العربى والإسلامى. وهكذا يريد منا الاستشراق أن نظل ندور فى هذه الحلقة المفرغة.

وفى الوقت الذى ينشغل فيه العالم العربى والإسلامى بفهرسة و(عد) ما لديه من تراث مخطوط، فإن الغرب قد أعد العدة لدراسة وتحقيق ما يستطيع الحصول عليه من مخطوطات عربية إسلامية، فخصص الباحثين والمستشرقين، واعتمد الميزانيات، وأنشأ المعاهد والمراكز الأكاديمية الخاصة بهذا الغرض مثل معهد سيميزونيان Simithonian Institute بواشنطن، ومعهد ولكم Wellcome Institute بلندن، إلى جانب مراكز باريس والاسكوريال، وهولندا، والفاتيكان، وأسبانيا.. وغيرها.

إن إنشاء مثل هذه المعاهد والمراكز العلمية ليؤكد بصورة جلية أن الغرب قد عاود التنقيش فى المخطوطات العربية الإسلامية أملاً فى مزيد من العلم، وبعد أن رأى أن ورثة هذه المخطوطات قد اكتفوا بتخزينها وتخصيص الميزانيات الضخمة لفهرستها من أن إلى آخر، دون تحقيقها ونشرها، اللهم إلا بعض المجهودات الأكاديمية والفردية المنفرقة والنثى تقتضى بعضها "المصلحة" فى معظم الأحيان، كأن يحصل المحقق بتحقيقه إحدى المخطوطات على درجة الماجستير أو الدكتوراه.

إن عملية فهرسة المخطوطات، وإن كانت لا تخلو من قيمة علمية تفيد سائر الباحثين من حيث إنها تحصر عدد مخطوطات المكتبة المفهرسة وتختصر الوقت اللازم للبحث عن نسخ المخطوطات المراد دراستها وتحققها، إلا أنها لا ينبغي أن تستمر بهذه الصورة الآلية، فنظل نفهرس المخطوطات على طول الوقت، - كل مكتبة على حدة - وكأننا (حَفَظَ) لهذه المخطوطات، لا ورثة شرعيين، لهم الحق، وعليهم واجب الغوص العميق في هذا اليم الكبير لاستخراج كنوزه ودرره.

وإذا كان بعض المفكرين والكتاب العرب والمسلمين قد فطنوا إلى مآرب الاستشراق، فتوجهوا إلى دراسة وفهم وتحقيق المخطوطات، فإن الجانب الاستشراقي كان لديه أيضاً أسلحة (خبيثة) مضادة لهذا الاتجاه، فنراه يوجه جهود العلماء المحققين نحو تحقيق مخطوطات بعينها مثل المخطوطات التي تعزز اتجاه أو مذهب معين، وفي الوقت نفسه تزيد من هوة الخلاف بين مذاهب الأمة الإسلامية، فإذا كان المذهب السني هو المذهب السائد بين، السواد الأعظم من المسلمين في جميع أرجاء العالم، نرى المستشرقين - ومعهم بعض المحققين العرب والمسلمين - يركزون جُلَّ اهتمامهم نحو تحقيق ونشر مخطوطات التصوف مثلاً وبصفة خاصة مخطوطات التصوف الفلسفي التي تحتوى على نظريات صوفية فلسفية عميقة لا يستطيع أن يفهمها إلا الخاصة أو خاصة الخاصة. ونفس الكلام ينطبق على مخطوطات المذهب الشيعي، أو مخطوطات الفرق الضالة كالدروز، والحشاشين، والباطنية.. وغيرهم. وغرض الاستشراق من مثل هذا الاتجاه واضح لكل لبيب، وهو بث الفرقة وتوسيع هوة الخلاف بين المذاهب المختلفة.

لم يكتفِ المستشرقون بتحقيق ونشر مثل هذه المخطوطات فقط، بل رايَناهم يهتمون أيضاً بتحقيق ونشر المخطوطات الأدبية بغرض صرف نظر العرب والمسلمين عن مخطوطاتهم العلمية التى تعمل على تفعيل وتواصل ملكة العقل بينهم وبين أسلافهم من علماء الحضارة العربية الإسلامية.

إن الواقع يشهد أن المخطوطات العربية - الإسلامية التى حققت ونشرت - أو التى نُشرت بدون تحقيق - منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى أواخر القرن العشرين، جاءت غالبيتها منصبة على الناحية الأدبية، فى مقابل نسبة ضئيلة جداً للمخطوطات العلمية. ولحسن الحظ تنبّه بعض المحققين العرب والمسلمين (الجادين) مؤخراً إلى نوايا الاستشراق، فبدعوا يهتمون بتحقيق ونشر المخطوطات العلمية.

وينبغى هنا ألا يفهم من فاهم أننى ضد تحقيق ونشر المخطوطات الأدبية، بل على العكس أؤيد وأناصر هذا الاتجاه بدافع قومى قوى، لكننى فقط ضد القمصة غير العادلة التى وضعها الاستشراق - بصدد تحقيق ونشر المخطوطات العربية الإسلامية فحوالى 90% أو 95% للمخطوطات الأدبية، والباقى للمخطوطات العلمية، فافهم!

وقبل أن يسألنى سائل عن غرض الاستشراق من ذلك، أود أن أشير إلى أننى أنادى بتساوى القسمة فى تحقيق ونشر المخطوطات بين المخطوطات الأدبية والمخطوطات العلمية، فضلاً عن المخطوطات الروحية (الدينية الصحيحة) طبعاً، وذلك لأن الحضارة العربية الإسلامية، لم تقم، ولم يكتمل بناءها المجيد على النواحي الروحية وحدها، أو النواحي الأدبية فحسب، أو النواحي العلمية فقط، بل قامت عليها جميعاً بنسب

متساوية لسبب بسيط جداً، وهو أن هذه النواحي كانت تكمل بعضها بعضاً
إبان عصر ازدهار الحضارة العربية الإسلامية. وعليه فلا ينبغي أن توجه
جهود تحقيق ونشر مخطوطات تلك الفترة الذهبية من تاريخ الأمة تجاه
ناحية واحدة فقط من نواحيها المترابطة.

أما غرض الاستشراق من محاولة إقصاء العرب والمسلمين عن
تحقيق المخطوطات العلمية، فيرجع إلى أن هذه المخطوطات تحوى كنوزاً
واكتشافات علمية عربية إسلامية أصيلة، لم تكن موجودة قبلهم، وأثرت
بعدهم تأثيراً بالغاً فى الإنسانية جمعاء. والأمثلة أكثر من أن تذكر هنا⁽¹⁾،
ولكن لا ضير من ذكر بعضها من حيث إن المستشرقين - ومن شايعهم
من أبناء جلدتنا - يريدون ويتمنون أن ينسى أو يتناسى العرب والمسلمين
الحاليين، أن أسلافهم إبان عصر ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، هم
الذين اكتشفوا المنهج العلمى التجريبي، وهم الذين قاسوا محيط الأرض
وقالوا بكرويتها، وهم الذين اخترعوا علم الجبر للعالمين، وهم الذين
وضعوا علم الاجتماع، وهم الذين اكتشفوا مرض الجذري والحصبة،
والدورة الدموية الصغرى وجرثومة الجرب التى تسمى "صوابة"،
واخترعوا خيوط الجراحة والحقن الشرجية، والغذاء الصناعى لمختلف
حالات شلل عضلات المعدة.. إلى غير ذلك من الانجازات الطبية
والعلاجية التى تُحسب لهم حتى اليوم. واكتشفوا أيضاً كثير من المركبات
الكيميائية مثل: حامض الكبريتك، وحامض النيتريك، والصودا الكاوية،
ونترات الفضة، وثانى أكسيد الزئبق، وحامض النيتروهيدروكلوريك..
وغيرها. وكل ذلك فضلاً عن إسهاماتهم المثيرة فى علوم الفلك، وطبقات

(1) أنظر فى ذلك كتابى بنية الجامعات العلمية العربية الإسلامية، دار الوفاء، الإسكندرية

الجو والرياضيات والصيلة، والفيزياء، والفلاحة..و.. وإن مثل هذه الإنجازات العلمية العربية الإسلامية، لتكشف بصورة جلية عن أن المستشرقين (يثكثرون) علينا أن نكونوا ورثة شرعيين لعلماء علما العالم!

لكل ما سبق ينبغي أن توجه الجهود والميزانيات (الضخمة) التي توجه لفهرسة المكتبات (المفهرسة) إلى نشر الهام والفاعل من المخطوطات، إما محققة، وإما ممهدة للتحقيق وقابلة للفهم والتبصير. والتحقيق بمنهجه، معروف، أما القابلية للفهم والتبصير، فتلك وجهة نظر جديدة أطرحها وأطبقها هنا.

من الثابت لدى المحققين (الجادين) أن أهم وأدق خطوات التحقيق إنما تتمثل في محاولة الوقوف على أدق وأقرب نص أراد صاحبه، وهو المؤلف، الأمر الذي يستلزم صحة هذا المؤلف ومؤلفاته الأخرى، وتلك الصعبة قد تطول في بعض الأحيان لتصل إلى سنوات. وهذا ما يفسر لنا إحجام المحققين عن التحقيق، وندرته بصفة عامة، فكثيراً ما نسمع من بعض الأساتذة أنهم يفضلون "تأليف" خمسة مؤلفات أهون عليهم من التصدي لتحقيق مخطوطة!

ومن أهم خطوات التحقيق أيضاً، "القراءة المستوعبة" للنص المراد تحقيقه، فإذا استطاع المحقق أو دارس المخطوطة أن يقرأها قراءة دقيقة وواعية يخرج منهما (باستيعاب) النص و(فهمه)، وهو بذلك يكون قد قطع شوطاً مهماً في سبيل التحقيق، ذلك الذي تتطلب بقية مراحل وقتاً طويلاً، فمن الممكن، بل من المفيد أن يبصرنا (مستوعب وفاهم) النص بالمضمنون العلمي أو الفكري للمخطوطة عن طريق نشر النص بعد تحليله وتلخيصه

وفهمه، بدلاً قصارى جهده فى تقديم صورة أمينة للمعلومات والمعارف التى وضعها مؤلفها فى مخطوطه.

إن هذا الطرح الذى أطرحه هنا يحقق فوائد جمة، أستطيع أن أشير إليها فيما يلى:

1- الحفاظ على المضمون والمحتوى العلمى للمخطوط، عن طريق طباعته، وبالتالى سيظل الكتاب المطبوع متداولاً بين الأجيال بخلاف الكتاب للمخطوط.

2- يعوّض الكتاب المطبوع، ضياع أو فقدان أو تلف، أو (سرقة) الكتاب المخطوط، ففى مثل هذه الحالات (الشهيرة) نستطيع أن نتعرف على ما أراده مؤلف المخطوط من خلال الإطلاع على الكتاب المطبوع (المستوعب).

3- تيسير البحث العلمى للباحثين، وخاصة فى مرحلة الدراسات العليا، والتى يفضل ويُستحسن فيها دائماً الرجوع إلى مظان العلم الأصلية، وهى المخطوطات. فأى وقت وجهد يوفره الباحث الذى يريد البحث فى مخطوطات أى علم من العلوم، ويجد أمامه مضمون ومحتوى هذه المخطوطات فى صورة مطبوعة، نهياً وتشجيع له الإقبال عليها والاستفادة منها فى حالة عدم توفر المخطوطات الأصلية، أو صعوبة الحصول عليها.

4- إن هذه العملية المقترحة التى تتضمن تحليل وتلخيص نصوص المخطوطات الهامة، وطبعها فى صورة مفهومة، تعد من قبيل المهام القومية التى تساعد فى رصد وتحديد وتقويم ذاكرة الأمة عبر تاريخها الطويل، وتعمل فى الوقت نفسه على دفع عجلة التقدم العلمى والحضارى إلى الإمام.

5- تُعد هذه المهمة القومية محاولة للكشف عن كنز دفين لعلم من أعلام الحضارة العربية الإسلامية في أحد كتبه المخطوطة التي عفى عليها الزمن، ولم يستطرق أحد إلى دراستها وفهمها أو تحقيقها ونشرها. وقد يحدث أن تقع هذه المخطوطة أو تلك في أيدي أحد الغربيين، فيكشف ما بها من كشف علمية، ثم ينسبها لنفسه، ولنا في قسطنطين الأفريقي (الوصف) واليوثين، وهارفي، وأشتال، وغيرهم من الغربيين الأسوة الحسنة، مع الاعتذار لجابر بن حيان، والحصن بن الهيثم، وابن النفيس، وابن زهر، وغيرهم من علماء الحضارة العربية الإسلامية الخالدين.

6- إن التقليب والتفتيش والتمحيص والدراسة في المخطوطات العربية الإسلامية ومحاولة فهمها ليوضح بصورة جلية أن مخطوطات حضارتنا العربية الإسلامية مازالت تحوى كنوزاً وذخائراً لم يُكشف عنها بصورة لائقة حتى اليوم. ومن بين هذه الذخائر وتلك الكنوز، علوم بأكملها، أبدعها العقل العربي الإسلامي، ولم تتل نصيبها الوافي من الكشف والبيان والتبيين والدراسة، خاصة وإن منها علوم مازالت فاعلة حتى اليوم. ومن أهم هذه العلوم - على سبيل المثال - وأكثرها فاعلية حتى هذه اللحظة، الطب النفسى للتطبيقي، أو ما يمكن تسميته "علم النفس العربى الإسلامى" الذى يُعد ابتكاراً عربياً إسلامياً خالصاً باعتراف الغربيين، ومع ذلك قلما نجد أياً من الكتابات العربية قد أفردت لهذا العلم، اللهم إلا بعض السطور المتناقلة بين بعض كتب تاريخ العلوم عند العرب، وربما يرجع سبب هذا الإجحاف إلى أن مكونات هذا العلم القديم - الحديث متناثرة بين أوراق المخطوطات العربية الإسلامية، وخاصة الطبية منها، ومعروف أن السواد الأعظم من كتابات تراثنا المجيد مازال مخطوطاً -

ولاسيما التراث العلمى - فلم يحقق منه إلا نسبة 6% أو ما يربو عنها قليل، وللاستشراق، كما نكرت، دور فى هذا التوجه، إذ ينذر أن تجد فى كتابات المستشرقين، منذ أن عاودوا التنقيب فى المخطوطات العربية الإسلامية إبان منتصف القرن التاسع عشر، أى كتابات مستقلة عن الطب النفسى أو علم النفس العربى، فسلك الكتاب العرب نفس مسلكهم.

وأمام هذا الوضع ومع صحبتي للمخطوطات العربية الإسلامية، دراسة وفهماً وتحقيقاً على مدار أكثر من عشر سنوات، رأيتنى أمام محاولة "تأصيل" علم النفس العربى الإسلامى، وهاك مقتطفات من هذه المحاولة:

من الثابت أن منظومة الطب العربى الإسلامى فى عصر ازدهارها قد تشكلت عبر مراحل مختلفة، بدءاً بترجمة علوم الأمم الأخرى - خاصة اليونان -، ومروراً بالدراسة والاستيعاب والتنقيح والنقد، وانتهاءً بالابتكار والإبداع.

هذا فيما يتعلق بالطب الجسمى، أما فيما يخص الطب النفسى، فيكاد يكون للعرب والمسلمين السبق فى هذا الميدان، حيث استند العلاج النفسى خلال عصور التاريخ قبلهم إلى السحر، ورد المرض النفسى إلى قوى شريرة فى استخدام الرقى والتمايم والتعاويذ. ففى الحضارة اليونانية كان يعتقد أن الشفاء من الأمراض النفسية يستلزم أن ينام المريض فى هيكل خاص، حيث يتم شفاؤه بمعجزة تحل بجسده فى الليلة الواحدة التى يقتضيها فى ذلك الهيكل. ولقد اقتصرَت الآفاق الخلفية فى الطب اليونانى على القسم الأبوقراطى الشهير والذى كان مضمونه أن يقسم كل طبيب للأرباب والربات من أمثال أبولون، وسكلابيوس، وهجيايا وبيناكيا وغيرهم بأن

يذهب إلى كل البيوت لفائدة مرضاها دون الذهاب إلى أصحاب الأمراض المستعصية، هؤلاء الذين لا يرجى شفاءهم، وكان ذلك استناداً إلى التعريف الأبوقراطى للطب "بالفن الذى ينقذ المرضى من آلامهم ويخفف من وطأة النوبات العنيفة، ويتعد عن معالجة الأشخاص الذين لا أمل فى شفائهم، إذ أن المرء يعلم أن فن الطب لا نفع له فى هذا الميدان"⁽¹⁾.

وهنا نجد الرازى كأعظم أطباء العرب والمسلمين وأكبر أطباء العصور الوسطى قاطبة، بل وحنة الطب فى العالم منذ زمانه وحتى العصور الحديثة، نجده يتعدى هذه الحدود الأخلاقية الأبوقراطية حيث رآها قاصرة وبفكر كأول طبيب فى معالجة المرضى الذين لا أمل فى شفائهم، فكان بذلك رائداً فى هذا المجال. لقد رأى الرازى أن الواجب يحتم على الطبيب ألا يترك هؤلاء المرضى، وأن عليه أن يسعى دوماً إلى بث روح الأمل فى نفس المريض، ويوهمه أبدأ بالصحة ويرجيه بها، وإن كان غير واثق بذلك، فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس.

ومن أشهر الأمراض التى اعتبرها سابقوه مستحيلة البرء، وعالجها الرازى، الأمراض النفسية والعقلية والعصبية، وكما فعل الرازى بالنسبة للأمراض العضوية من تقديم وصف مفصل للمرض يشرح فيه علاماته، وأعراضه، ثم يصف له العلاج المناسب، فإنه قد فعل نفس الشئ بالنسبة لهذه الأمراض. ومن الأمثلة على ذلك قوله: "الغم الشديد الدائم الذى لا يعرف له سبب، وخبث النفس، وسوء الرجاء ينذر بالماليخوليا" ثم نراه يقيم وصفاً بليفاً لهذا المرض فيقول: "ومن العلامات الدالة على ابتداء

(1) انظر مقالى، فى المخطوطات العربية.. علوم إيداعية (مهمة).. علم النفس (محاولة ناصيلية) المنشور بجريدة الأهرام بتاريخ 7 مايو 2004.

الماليخوليا: حب التفرد والتخلي عن الناس على غير وجه حاجة معروفة أو علة كما يعرض للأصحاء لحبهم البحث والستر للأمر الذي يجب ستره. وينبغي أن يبادر بعلاجه لأنه في ابتدائه أسهل ما يكون، ويعسر ما يكون إذا استحكم، وأول ما يستدل على وقوع الإنسان في الماليخوليا، هو أن يسرع إلى الغضب والحزن والفرح بأكثر من العادة ويحب التفرد والتخلي، فإن كان مع هذه الأشياء بالصورة التي أصف، فليقظنك، ويكن لا يفتح عينيه قليلاً، وشغافهم غليظة، وصدورهم وما يليها عظيم، وما دون ذلك من البطن ضامر، وحركتهم قوية سريعة لا يقدرّون على التمهّل، دقاق الأصوات، ألسنتهم سريعة الحركة بالكلام، ولا يظهر في كل هؤلاء في وإسهال معه كيموس أسود، بل ربما كان الأكثر الظاهر منهم البلغم، فإن ظهر في الاستفراغ، شيء أسود، دل على غلبة ذلك وكثرته في أبدانهم، وخف منهم مرضهم قليلاً. وينصح الرازي أصحاب هذا المرض بالسفر والانتقال إلى بلد آخر مغاير لبلدهم في المناخ فقد برأ خلق كثير من الماليخوليا بطول السفر على حد قول الرازي⁽¹⁾.

واللرازي معالجات نفسية كثيرة توضح بصورة جلية أنه قد أدرك أثر العامل النفسي في صحة المريض. وليس هذا فحسب بل وفي إحداث الأمراض العضوية. وبذلك يكون الرازي قد تنبه إلى ما يسمى في العصر الحديث بالأمراض النفسجسيمية Psychomatic diseases وهي موضوع اهتمام أحداث فروع الطب.

(1) انظر مقال، صفحات مشرقة من التاريخ العربي: أصالة الطب النفسي، المنشور بمجلة العربي الكويتية، عدد نوفمبر 2004.

وهناك أطباء كثيرون غير الرازي كل أنلى بنلوه فى هذا الميدان مثل جبرائيل بن بختيشوع، وعلى بن رضوان المصرى، وأبو القاسم الزهراوى، ورشيد الدين أبو حليقة، وسكرة الحلبي، والشيخ الرئيس ابن سينا.. وغيرهم.

فمما وصل إلينا عن جبرائيل بن بختيشوع - كمنال - هذه الحالة التى سجلها ابن أبى أصيبعة، حيث ذكر أنه كان لهارون الرشيد جارية رفعت يدها فبقيت هكذا لا يمكنها ردها. والأطباء يعالجونها بالتمريخ والادهان، ولا ينفع ذلك شيئاً، فاستدعى جبرائيل بن بختيشوع، فقال له الرشيد: أى شئ تعرف عن الطب؟ فقال: أبرد الحار، وأسخن البارد، وأرطب اليابس، وأيبس الرطب الخارج عن الطبع. فضحك الخليفة وقال: هذا غاية ما يحتاج إليه فى صناعة الطب، ثم شرح له حال الصبية، فقال له جبرائيل: إن لم يسخط على أمير المؤمنين فلها عندى حيلة، فقال له: وما هى؟ قال: تخرج الجارية هنا بحضرة الجميع حتى أعمل ما أريده، وتمهل على ولا تعجل بالسخط، فأمر الرشيد بإحضار الجارية فخرجت. وحين رآها جبرائيل عاد إليها ونكس رأسه ومسك ذيلها كأنه يريد أن يكشفها، فانزعجت الجارية، ومن شدة الحياء والانزعاج استرسلت أعضائها، وبسطت يدها إلى أسفل ومسكت ذيلها. فقال جبرائيل: قد برئت بما أمير المؤمنين، فقال الرشيد للجارية: أبسطى يدك بمنة وبسرة، ففعلت ذلك، وعجب الرشيد وكل من كان بين يديه.

يفسر علم النفس الحديث حالة هذه الفتاة على أنها حالة "قصام" Schizophrenia من نوع يسمى "القصام التشنجى" "Catatonia" أو الفصام التصلبى Catatonic الذى يتميز سلوك صاحبه بالتبليس النفسى

والجسمي⁽¹⁾ حيث يجلس المريض ساعات طويلة جامد لا يتحرك وإذا رفع يده أو ذراعه فإنه يبقيه لمدة طويلة كما لو كان منفصلاً عن جسمه لذا تعتبر هذه الحالة إحدى الاضطرابات الحركية ذات الأعراض التكوينية والنفسية، وربما تنتج عن الاستثارة المستمرة الداخلية منطقة غير محددة بالمخ حيث يزداد نشاط "الجاما أمينو بيوتريك أسيد" "GABA Gamma amino butyric acid".

ويلاحظ أن "جبرائيل" قد استخدم ما يعرف حالياً بالعلاج السلوكي Behavior therapy الذي يهتم في أبسط حالاته بعلاج العرض الملاحظ. ويعتمد العلاج السلوكي الحديث على أبحاث ونظريات بافلوف Pavlov أحد رواد المدرسة السلوكية التي تعنى بتفسير السلوك الإنساني كاستجابة لمثير خارجي دون إعطاء أهمية للعوامل الداخلية للفرد بالإضافة إلى إسهامات B.F.SKinner سكندر في هذه النظرية. حيث استخدم جبرائيل الفعل المنعكس Reflex action الذي لا يصدر عن المخ وإنما يصدر عن النخاع الشوكي وبالتالي لا يخضع للتفكير الرمزي. فتصلب يد الفتاة فعل قسري تعجز عن تغييره بطرق الإقناع العادية، ولذلك فلا بد وأن يتم علاجه بظروف تعجز الفتاة عن عدم الاستجابة لها، أي بفعل لا إرادي، وهذا ما فعله جبرائيل تماماً.

أما الشيخ الرئيس ابن سينا فقد عنى بعلم النفس عناية كبيرة، حيث ألم بمسائله المختلفة إلاماً واسعاً، واستقصى مشاكله وتعمق في أكثرها تعمقاً كبيراً. ومن إضافاته الأصيلة في مجال علم النفس باعتراف عالم

(1) انظر مقال، للتأصيل النفسي لعلم النفس، المنشور بجريدة الأهرام بتاريخ 14 مايو 2004.

النفس الأمريكى هليجارد أنه قد تعرف على ما يعرف اليوم باسم الأمراض الوظيفية Function Illnesses فى مقابل الأمراض العضوية Organic Illnesses والأمراض الوظيفية هى أمراض نفسية الأسباب والنشأة Psychogenesis، وتصيب وظيفة العضو ذاته كالتفكير بالنسبة للدماغ. ومنها الأزومات والكوارث والصدمات النفسية وخبرات الفشل والإحباط والحرمان والقسوة والخضوع لحالات من الضغط النفسى والاجتماعى.

ومن الجدير بالاعتبار أن واحداً من أكبر علماء النفس الأمريكين المعاصرين، هو جيمس كولمان James C. coleman يضمن كتابه "Abnormal Psychology and modern life" حالة مرضية نفسية عالجهما ابن سينا بطريقة مبتكرة أفادت علم النفس الحديث. يقول كولمان: أصيب أحد الأمراء بالمالنخوليا، وظهرت من أعراضها عليه أن تخيل نفسه "بقرة" يجب أن تنبح وتتغذى الناس من لحمها اللذيذ. وكان هذا المريض يخرج صوت كصوت البقرة (الخور)، ويصيح: أذبحونى.. أذبحونى، ولذا امتنع عن الطعام، الأمر الذى أدى إلى ضعفه وهزاله. ولما تم إقناع ابن سينا بعلاج هذا الأمير، بدأ علاجه بأن أرسل إليه رسالة يبلغه فيها بأنه ينبغي أن يكون فى حالة نفسية جيدة، حيث سيقدم الجزار قريباً لنبحه، ففرح المريض بهذه الرسالة، وهياً نفسه - نفسياً - للنبح. وبعد فترة دخل إليه ابن سينا غرفته شاهراً سكيناً كبيراً، وقال: "أين هذه البقرة التى سوف أذبحها" فأجابته المريض بإصدار خوار البقرة كى يعرفه، فأمر ابن سينا بأن يطرح أرضاً، وتقيد يديه وأرجله، وبعد إتمام هذا الأمر، تحسس ابن سينا كل جسمه، ثم قال: إنها بقرة نحيفة جداً لا تصح للنبح الآن، يجب أن نتغذى وتسمن أولاً، ثم أمرهم بإطعام المريض بأطعمة جيدة

ومناسبة، فاكْتَسَب المريض حيوية وقوة، الأمر الذى جعله يتحرر مما اعتراه من أعراض وهذات، وتم له الشفاء التام.

تكشف معالجة هذه الحالة عن أن ابن سينا قد شخصها تشخيصاً سليماً بأنها حالة ملنخوليا Melancholia بأعراضها المعروفة. كما أدرك معنى مصطلح الهذاء أو الضلالة Delusion أحد الأعراض المميزة للذهان العقلى Psychosis أو المرض العقلى المرادف للجنون. والمنهج الذى استخدمه ابن سينا فى علاج هذه الحالة ومثلتها هو نفسه المنهج المتبع فى العلاج النفسى الحديث، وبذلك يكون لابن سينا سبق فى هذا المجال.

ومن نواتر الطبيب أوحّد الزمان البلدى: أن مريضاً ببغداد كان يعتقد أن على رأسه دنا، وأنه لا يفارقه أبداً. فكان كلما مشى يتحاذى المواضع التى أسقفها قصيرة ويمشى برفق ولا يترك أحداً ينو منه، حتى لا يميل الدن أو يقع عن رأسه. وبقي بهذا المرض وهو فى شدة منه. وعالجته جماعة من الأطباء ولم يحصل بمعالجتهم تأثير ينتفع به. وأنهى أمره إلى أوحّد الزمان ففكر أنه ما بقى شئ يمكن أن يبرأ إلا بالأمور الوهمية، فقال لأهله: إذا كنت فى الدار فأتونى به ثم أمر أحد غلمانه بأن ذلك المريض إذا دخل إليه وشرع فى الكلام معه، وأشار إلى الغلام بعلامة بينهما، أن يصرع بخشبة كبيرة فيضرب بها فوق رأس المريض على بعد منه كأنه يريد الدن الذى يزعم أنه على رأسه، وأوصى غلاماً آخر، وكان قد أعد معه دنا فى أعلى السطح، أنه إذا رأى ذلك الغلام قد ضرب فوق رأس صاحب المالنخوليا أن يرمى الدن الذى عنده بسرعة إلى الأرض. ولما كان أوحّد الزمان فى داره، وأتاه المريض شرع فى الكلام معه

وحادثه، وأنكر عليه حمله للذن، وأشار إلى الغلام الذى عنده من غير علم المريض فأقبل إليه، وقال والله لا بد لى أن أكسر الذن وأريحك منه. ثم أدار تلك الخشبة التى معه وضرب بها فوق رأسه بنحو ذراع، وعند ذلك رمى الغلام الآخر الذن من أعلى السطح، فكانت له جلبة عظيمة، وتكسر قطعاً كثيرة، فلما عاين المريض ما فعل به، رأى الذن المنكسر، تأوه لكسرهم إياه، ولم يشك أنه الذى كان على رأسه بزعمه، وأثر فيه الوهم أثراً براً من علته تلك.

فى علم النفس الحديث تفسر حالة مريض بغداد هذه على أنها حالة أعراض هلاوس "Hallucination" (يلاحظ هنا تأثير المصطلح الإنجليزي للهلاوس بالتسمية العربية. ومن هذا القبيل أيضاً: Hysteria هيسترى. Hysteric هيسترى. Malancholia مالنخوليا) وهى من الأعراض الشائعة لدى الذهانين والنادرة بين العصابين. وتعرف الهلاوس على أنها مدركات حسية خاطئة لأنها لا تنشأ عن موضوعات واقعية فى العالم الخارجى بل عن وضوح الخيالات والصور الذهنية ونصوعها نصوعاً شديداً بحيث يستجيب لها المريض كوقائع بالفعل وقد تكون هذه الهلاوس بصرية سمعية أو ذوقية أو حتى شمعية. وهى فى حالتنا هذه، هلاوس بصرية⁽¹⁾.

وقد استخدم "أوجد الزمان" فى علاجه لهذه الحالة ما يعرف بالعلاج بالإحياء وهى طريقة لعلاج أعراض المرض تساعد على تحرير المريض من اعتقاده الفاسد.

(1) انظر مقالى، علم النفس فى التراث العربى، المنشور بجريدة الأهرام بتاريخ 6 أغسطس 2004.

ولقد أدرك الطب العربي الإسلامي آثار الحالة النفسية للإنسان، في وظائف أجهزة الجسم المختلفة، فالحالة النفسية في الانتقباض والفرح والهم والغم والخجل، تؤثر تأثيراً مباشراً في سلوك الإنسان، وقد تؤدي إلى الجنون وفقدان العقل، والأمراض النفسية الشديدة التي يحتاج علاجها إلى بحث دقيق وعميق، وهذا ما فعله الأطباء العرب المسلمون وطبقوه بالفعل في أقسام الأمراض العقلية في البيمارستانات (المستشفيات) حيث فطن العرب المسلمون إلى ضرورة تخصيص أماكن خاصة لمعالجة أصحاب الأمراض العقلية، فكان يخصص لها قسم في كل بيمارستان، يتلقى فيه المريض عناية خاصة من أطباء حاذقين ومهرة في فنون العلاج النفسي.

وقد وصل الاهتمام بهؤلاء المرضى حداً إلى الدرجة التي معها كانت أقسامهم في بيمارستانات بغداد ودمشق، والقاهرة، وقرطبة تفرش بفرش من القطن في ردهات يتوفر فيها الهدوء والهواء الطلق والنور، وعليهم مشرفون يتعهدونهم بالأشربة المسكنة والمرطبة، ويغذونهم بمرق الدجاج وأنواع الألبان، بينما الموسيقى تصدح خلفهم بالحنان شجية، وفي بعض البيمارستانات مثل بيمارستان حلب خص المريض بخادمين ينزعان عنه ثيابه كل صباح، ويحممانه بالماء البارد، ويلبسانه أنظف الثياب، ويجملانه على أداء للصلاة، ويسمعانه قراءة القرآن - ألا ينكر الله نطمئن القلوب - ويخرجان به إلى الهواء الطلق.

يتبين من كل ما سبق أن أسس ومبادئ علم النفس - كعلم حديث نسبياً - موجودة على حد زعمي - في مؤلفات وكتابات بعض علماء الحضارة العربية الإسلامية، وأطباءها. لكن معظم هذه المؤلفات لا زال في صورته المخطوطة. وبناءً على ما قدمته، فإن مثل هذه المخطوطات

تستحق منا أن ننفض عنها غبار المنين بالفهم والدراسة والتحقيق، لعلنا نكشف عما تحتويه من كنوز مازالت فاعلة حتى اليوم، ومنها الطب النفسى، أو علم النفس العربى الإسلامى، والذى قدمت له بعض الشواهد والمؤيدات التى تشير إلى أنه علم عربى إسلامى أصيل.

7- وأخيراً وعلى أقل تقدير تبرز هذه العلمية المقترحة القيمة المعرفية للمخطوط موضوع الفهم والاستيعاب والتحليل والنشر، فتسد فجوة، أو تكمل حلقة من حلقات سلسلة تاريخ العلم، موضوع اهتمام العالم المتقدم حالياً.

ويُعد كل ما سبق قليل من كثير ناتج من عملية (فهم) المخطوطات التى أنادى بها... فهلا استمعنا!

ويشتمل كتابى هذا على ثلاثة كتب لحجة الإسلام، الإمام أبو حامد الغزالى، نكاد تكون مجهولة، وتُنشر - حسب علمى - لأول مرة. وقد طبقت عليها منهجى الجديد المشار إليه فى المقدمة، ففُتت بتحليل، وتلخيص، وتنقية، وفهم، واستيعاب نصوص الكتب الثلاثة، وذلك بغرض "تبصير" القراء والمختصين، بهذه الكتب التى ما زالت مخطوطة، ومجهولة، مع إنها ذات قيمة علمية وروحية كبيرة، ولا سيما إذا علمنا أن من بينها كتاب منهاج العابدين، وهو آخر ما كتبه الغزالى صاحب "إحياء علوم الدين".

فقد جاء إخراج هذه الكتب عن اقتناع كامل بأن قيمتها تتناسب بلا شك مع حجم "الغزالى" على مستوى العالم.

- 1 -

كتاب الكشف والتبيين

في

غرور الخلق أجمعين

"تحليل وفهم وتبصير"

أولاً: نماذج المخطوطة

باسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين
 قال الشيخ الامام العالم العامل حجة الاسلام ابو حامد محمد بن محمد الغزالي
 الطوسي رحمه الله تعالى وعفي عنه الله وحسن الصلوة والسلام على خير خلقه
 سيدنا محمد وآله وصحبه خلدوا في الدنيا والقيامة في عرش الخلق اجمعين اعلم
 ان الخلق قسمان عباد الله وهم حيوان والحيوان قسمان ملك ومخل فالملك خاضع
 بالعبادة وامره بها ومعه التوابع عليه والملك من المأمورين وحده الغفور
 ثم الخلق قسمان مؤمن وكافر والمؤمن قسمان طائع وعاص وكل من الطائعين
 والمعاصين ينقسم قسمين عالم وجاهل ثم رتب الغرور لا الجمع الموعود من
 ولكافرين المؤمنين الله رب العالمين وانما تجد الله لكشف عن غروره وادب
 المحبة في روضه غايبة الانصاف واسية غايبة البيان باوجها يكون من العالمين
 وانبياء ما يكون من المشركين والاعتراف من الخلق ما عصى الخلق اربعة اصناف
 صنف من العالم وصنف من العباد وصنف من ارباب الاموال وصنف من المشهورين
 فاما ما عصى الله غرورا فافروهم قسمان منهم من غرته الحياة الدنيا ومنهم من
 غرته بالله الغرور اما الذين غرته الحياة الدنيا فممن الذين قال الله تعالى في النصارى
 ولله ان الدنيا بغيري ولذا ان الاخرى شك ولا ينك الدين بالشك وهذه اقسام
 فاسدة وهو قياسي ان يبين الله تعالى في قوله انا خير منه فظن ان الله
 في النسبة وعسى ان هذا يغور شيان اما ان تصدق وهو الايمان واما
 بجهان اما التصديق فهو ان تصدق الله تعالى في قوله وما عند الله خير من
 وما الحياة الدنيا الا متاع الزور وتصديق الرسول فيما جاء به واما البرهان وهذا
 ان يعرف وجه تضاد قياسه ان قوله الدنيا بغيري والاخر نسبة متقدمة على
 واما قوله الله خير من النسبة في بطلانها فبطلانها في الامتنان بل ان كان الله
 مثل النسبة في المقدار والمقدور فهو خير وان كانا اذ منته فالنسبة خير من العلم ان
 الاخر ابيته والاول غير البديع واما قوله والله نيا بغيري والاخر شك في انما باطل

فنذكر

فذلك يعني عنه المؤمنين والمؤمنات من بعد كما نأخذ من الإيمان والنقض في علم
 وجه التقليد للأنبياء والمرسلين كما قلنا الطيب الخاذق في الدوا والمذكر الثاني
 الوجه للأنبياء والمرسلين ولا يظن أن معرفة النبي صلى الله عليه وسلم أمور
 الآخرة والأمور الدنيوية فليعلم في علمه السلام فانه التقليد ليس بمعرفة صحيحة
 والنبي صلى الله عليه وسلم شاهد من ذلك بل قد انكسفت له الأسرار وشاهد لهم
 بنو النضير لما شاهدوا أن الله المستوفى بالعين الباصرة وجهه
 والمؤمنون بالسبب ثم وعده بدم إذا حضروا الله تعالى وهي الأعمال الصالحة وتند
 في شهودهم ما يكون للكفار في هذه العزرة والحياة الدنيا للكافرين والمؤمنين جميعا
 فاما عذرة الكافرين بالله تعالى فما له ولم يعجزهم في أنفسهم بالسبب ثم إنهم
 كان الله يريدنا فحينئذ بقى من غيرنا كما أخبر الله تعالى عنهم في سورة القرآن
 حين قال يا أيها الذين آمنوا انشدوا الله ابدأوا فإني الساعة وأسمي الآية وسبب
 هذه الآية روي عن أبيه البليغ لوجه الله تعالى وذلك أنهم ينظرون في
 التي ثم الله تعالى عليهم في الدنيا فيسبون عليها فيم الإخراج ومرة إلى ناخير
 عنه الله عنهم في الدنيا فيفسبون عليها هذه الآية الإخراج كما أخبر الله تعالى
 عنهم وينظرون في أنفسهم لولا أن الله تعالى في الآية وسبب ينظرون إلى
 المؤمنين وهم يفترون فيهم وينظرون الله لا من الله يعلمهم من بيننا ونظروا
 لو كان غير ما يستحقون الله ونزجيب الناس الذي نظم في قلوبهم أنهم يقولون
 في أنفسهم الله المذنب الدنيا وهو محب وكل محب محسن للكل يكون محسنا
 ولا يكون محبا بل كما يكون أعين لسبب الهلاك علم الاستتار راج وذلك بعض
 الفروقات بينه عز وجل والله تعالى أن الله يستلذه والسلام الله تعالى في عباد
 من الدنيا كما يحسنهم من عباد الله والمؤمنين وهو محب ولذلك كانت
 إرباب الدنيا إذا قبلت عليهم الدنيا جزئيا وإذا قبل عليهم العزرة والاولا
 من حيا وشهدوا الصالحين فله قال تعالى فاما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه قال هو

ونعم الآية وقال تعالى سمعتموه من حيث لا تعلمون وأعلم لهم انكم كنتم
 متين وقال تعالى فلما استنصروا الله ففتحنا عليهم ابوابا من حيث هم اذا
 فرحوا بما اوتوا اخذناهم بغتة فاذا هم منكسرون فمن امن بالله تعالى في الايمان
 من هذا النوع ومن شاهد الغرور والجهل بالله تعالى وبصفاته فان من عرف
 الله تعالى فلا ياتيه عن مكر الله تعالى الا فلا فيظهر ذلك الى فرعون وهامان وعمر
 وما داخلهم مع الله تعالى اعطاهم من المال وقد جحد والله تعالى مكره فقال
 تعالى فلا ياتيه من مكر الله الا الغم الخاسر وقال تعالى ومكرنا ومكرنا الله والله
 اعلم الاكرين وقال تعالى ثم هلك الكافرين امهلهم رويدا فمن اولى يومئذ بغير حساب
 ثم في سورة ماعين والعصاة بالله من المؤمنين الذين لم يغفروا لهم
 وانما نرجعهم عما كانوا يعملون في تلك الاهمال الاعمال وذلك من قبل الربا فانه مقام محمود
 في الدنيا وان دهم الله وسعة ونعمة شاملة وكرمه عليهم وانا موعودون
 نرجوه فوسيلة الايمان والكلم والاصناف ونما كان منشأ حالهم التمسك بصلح
 الامام الامهات وذلك في الله الغرور فان اباهم مع صلاحهم وورعهم كانوا غافلين
 ونظم قياهم الذي يستولون السطبان من احب اناسا احب اولاده فان الله
 قد احب اباكم فهو يحبكم فلا تنسوا حق الطاعات فاعلموا على ذلك واعتبروا بالله ولم
 يعلموا ان نوحا عليه السلام اراد ان يعمل ولده في السفينة فجمع واعرفه الله سبحانه
 وتعالى يا نوح ما اعزقته قومك وان سميتا محمدا صلى الله عليه وسلم طلبة زيارة
 قبره وفي الاستغفار فاذا في الزيارة والبركة في الاستغفار ونسوا قول الله
 تعالى لا تزرزروا قبري والذين لا يسمعون الا ما يسمعون ومن نظر الله في خلقه
 اصطفى من خلقه يسع بكلامه او يروي بشرايه انهم والسفينة فوفى من الايمان والادب
 على ولده يوم يتر المومنين ائمة وامه وائمه واهل بيته والاعمال من الاستقامة
 ونسوا قول الله عليه الصلاة والسلام اني من ذان نفسي وعمل لما بين الموت والافئدة
 من اتيه نفسه تقوا وحسب على الله الاماني وقوله لا اله الا الله الذي جاهدوا

وما جاهدوا

وجاهدوا في سبيل الله اولئك هم صوفى رحمة الله والله عفو رءوفهم وقال تعالى جزاء
 مما لا يؤمنون به وهل يصلح الربا الا ان تتقدمه عمل والافوا وغرو لا يحل الله
 فضله وقدره منهم بطريقهم طاعات ومناصب الا ان معاصيهم اكثر من
 توفيقهم المعقولة ويظنون ان الله خصهم برفع الثمن لضعف انفسهم وهذا
 غاية الجزا فترى الواحد يصدق في دينهم معه ودية من المال والخدم ويكون من
 يتناول من اموال الناس والسيب الضعفاء وهؤلاء وضعوا في كفة الميزان عسرة
 وراهم ووضع في الكفة الاخرى انما اراد ان يميل الكفة التي فيها العسرة وذلك
 لما لا يجهل ويصعب على من يرى ان طاعة اكثر من معاصية واذا عمل
 طاعة حفظها واعتد بها لا الذي يستغفر بلسانه ويبسج في الدليل والها واصلها
 مائة مرة ثم يفتن بالسبيل وتبطل ما لا ينفع الله طول الزيادة التي عارده في
 فضل التيسير ويغفل عما ورد في عقوبة العناد ومن الكفاية التي تهاجم من الماخذ
 وذلك بحسب الضرر بحفظ نساء عن المعاصي اركد من تسمي انما يحصل في بيان
 احسان المصروفين واقسام كل صنف الى سبب الاول من المعذورين العلماء والعباد
 منهم فرق فرقة منهم لا احكام الشريعة العقلية تعميرهم واستقلالها
 واعملوا نفس التواضع وحفظها من المعاصي وانزل اليها الطاعة قاعته واهلها
 انهم عند الله عباد وادهم قدباه وامن العلم بلفا لا يعذب الله تعالى من علمهم بل يعقل
 علمهم ويستر انما في سبب عيهم ولا يطالبهم بدونهم خطاياهم وهم معذورون
 فانهم لو نظر واقع البصيرة علموا ان العلم علان علم معاملته وعلم مكاشفته وهو العلم
 بالله تعالى بصفاته ولا بد من علم الحاحلة لشم الحكمة المقصودة وهي العلم بمعرفة
 الخلال والعدم ومعرفة اطلاق الناس المدعومة والمحمودة وهذا العلم يقال له العلم
 طيب غيره وهو علم اياه وعلى علم نفسه ومن قبل ان يحمل منها الدوايا لا يصفى عنها
 لا يسمع الله الا امره من بعد التوبة وعقله عند قوله بما قد اخرج من زكاه وقد
 خذ من سببها ولم تقدر من علم تركها ولست بحكمها وسلمها بالعلم وعقله عند قوله

وهم يظنون ان غرضهم الخدمة والتعجبة ثم انهم يحسون من الخدام والشبهات ليستحق عليهم
 لشكر اتباعهم وينشئ بالخدمة اسمهم وبعضهم يأخذ من اموال السلطان وينفق عليهم
 وبعضهم يأخذها لينفق في طريق الحج على الصوفية ويترجم ان غرضه البر والافتان وباعث
 جميعهم الريا والسفهة وذلك احوالهم لجميع احوالهم تعالى فاعلموا انهم يأخذون الخمر وتزني
 منه ومثالا ذلك الذي ينفق ماله الحرام في طريق الحج يمكن من مسمى بالله تعالى ويحسب ان
 وزير علمه وقصدته الهوى وفرقة اخرى استغنى بالمال جهلة وتهذيب الاخلاق ونظير
 اشقى من عيوبها وصاروا يتفخرون فيها واتخذوا الحجة عن عيوب النفس ومعرفة
 خدا عنها علمه وحرفة لهم فهم في جميع احوالهم يستغلون بالخط عن عيوب النفس واستبناط
 وقتهم الظلم في اذاعتها فيقولون هذه اذن النفس عيب والفتنة عن كونه عيبا عيبا فيقولون
 فما أسلمة وصغير في ذلك اوقاتهم فكانهم وقوامع انفسهم ولم يستغلوا بحاجاتهم
 في انفسهم مثال هذا يستغل اوقات الحج وعوائقه ولم يسلك طريق الحج وذلك بقصد
 الحج وقصدته اخبرهم بما روت هذه المرتبة وارتدت واسلوكة الطريق وانتهت لهم ابواب
 المعرفة فلما شعروا من مبادئ المعرفة راحية تغيبوا عنها وفرغوا عنها وانجسوا
 ففعلت قلوبهم بالانسياق تآديها والتكبر فيها وفي كيفية انفتاح بابها عنهم من
 واستبدوها على غيرهم وكان ذلك غرورا لان عجائب طريق الله تعالى ليس لها نهاية
 فن وقف مع كل عجوبة ونسب بها قصرة خطاه وخدم الوصول الى المقصد وسأله
 مثال من قدم على ملك فرائس باهية ميدانه روضته في اديها وازوار ولم تكن قد رها قبل
 ذلك ولا راس مثلها فوقف ينظر اليها حتى خافت الوقت الذي يمكنه اللها بالملك من
 فانصرف حاميا وفرقة اخرى بها ورتة هو لا ولم تلتفت الى عاين يفتح عليها من الاراد
 في الطريق ولا الى انفسهم من العطايا التي يملكون ولم يلتفتوا اليها ولا عرفوا عملها
 بالاسرار والادب في السير فلما قاربوا الوصول ظنوا انهم وصلوا فوقفوا ولم يدركوا
 يقصدوا وذكره وغلطوا فان الله تعالى له سبعون حجبا من نور وظلاله ولا يصير الله ملك
 اتى حجاب عن تلك الحجب والذين انفعوا وعملوا واتبعوا الاشارة يقول تعالى احبوا واعين

ابراهيم

اجمع عليه افضل الصلاة والسلام ان قال فالجني عليه السلام راى كوكبا
 ليه وما اكثر في هذا المقام قال عجب بين العبد ورب نفسه فان امره بان
 ظم وهو نور من انوار الله تعالى اعني سر القلوب الذي يبين حقيقته
 فمن كما هي حتى انه ليس بملة العالم كله ويحيى بصور الورى فعند ذلك
 يسرق نوره اسراقا عظيما اذ يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليه
 وهو في اول الامر مجبور بمسكاة هي الساترة له فاذا تجلج نوره وانكشف
 جلال القلب بعد اسراق نور الله تعالى عليه وبما التفت صاحب القلب الى
 القلب فرأى من جملة انوار الله تعالى عليه فصار يقول ان الله تعالى لم
 ينسخ نه ما واذ لك ووقف عنده في ذلك ولهذا القدر نظر النصارى الى
 المسيح عليه الصلاة والسلام لما راوا من اسراق نور الله تعالى عليه
 فغلطوا لمن راى كوكبا في مראה او في ماء فيظن ان الكوكب في المראה او في
 الماء فيعده لياخذ منه ثم يمتزج وانه انواع العزور في الدنيا الى
 الله تعالى لا يخص في مجلدات ولا تستقيم الا بعد شرح جميع العلوم القيمة
 وذلك مما لا يخص في ذكره وقد يجوز ان يكون راجع الى نفع المستر في
 وبالله التوفيق وهو محسن وشم النور والاحول والاقوة الابالله الملك العظيم

وفضل الله عليه سميته محمد وعبد الله
 وصحبه وسلم بمكة محمد وآله
 وعونه وسن
 توفيقه

ثانياً: مضمون ومفهوم الكتاب

يُقَسَّم الإمام الغزالي الخلق إلى قِسْمَيْنِ : حيوان، وغير حيوان،
والحيوان ينقسم إلى قسَمين: مكلف، ومهمَل، فالمكلف خاطبه بالعبادة،
وأمره بها، ووعده الثواب عليها، ونهاه عن المعاصي وحثَّه العقوبة، كما
أن المكلف قِسْمَان: مؤمن، وكافر.

والمؤمن قِسْمَان: طائع، وعاص. وكل من الطائعين والعاصين قسَمين:
عالم، وجاهل، ثم يري أن الغرور لازماً لجميع المؤمنين والكافرين إلا من
عصمه الله رب العالمين.

والمغرورون من الخلق ما عدا الكافرين، أربعة أصناف:

1- صنف من العلماء. 2- صنف من العبياد.

3- صنف من أرباب الأموال. 4- صنف من المتصوفة.

فأما غرور الكافر فقسَمَان: 1- منهم من غرَّتهم الحياة الدنيا،
2- ومنهم من غرَّهم بالله الغرور. وعلاج هذا الغرور شيئَان: إما
بتصديق وهو الإيمان، وإما ببرهان، أما التصديق، فهو أن تصدق الله
تعالى في قوله ﴿وما عند الله خير وأبقى﴾ وما الحياة الدنيا إلا متاع
الغرور ﴿وتصدق الرسول فيما جاء به﴾.

وأما البرهان فهو أن تعرف وجه فساد قياسه، ومعلوم أن الآخرة أبدية
والدنيا غير أبدية، وأما القول بأن الدنيا يقين، والآخرة شك، فهو باطل،
يقف عنه المؤمنون، وليقينيته مدرَكَان: أحدهما: الإيمان والتصديق على
وجه التقليد للكُتُبَاء والعلماء، كما يُقَلَّد الطبيب الحائِظ في الدواء. والمدرَك
الثاني: الوحي للكُتُبَاء، والإلهام للأولياء.

ولا تظن أن معرفة النبي ﷺ لأُمُور الآخرة، ولأُمُور الدنيا تقليداً
لجبريل (عليه السلام)، فإن التقليد ليس بمعرفة صحيحة، والنبي ﷺ حاشاه

من ذلك، بل قد انكشفت له الأشياء، وشاهدها بنور البصيرة، كما شاهدت أنت المحسوسات بالعين الباصرة.

والمؤمنون بالسنتهم وعقائدهم إذا ضيّعوا أمر الله تعالى، وهي الأعمال الصالحة وتدنسوا بالشهوات فهم مشاركون للكفار في هذا الغرور، فالحياة الدنيا للكافرين والمؤمنين جميعاً. فأمّا غرور الكافرين بالله تعالى، فمثاله قول بعضهم في أنفسهم بالسنتهم: إنه إن كان الله يُعَذِّبُنَا، فنحن أحقُّ به من غيرنا، كما أخبر الله عنهم في سورة الكهف حين قال: "ما أظن أن تبديد هذه أبداً وما أظن الساعة قائمة". وسبب هذا الغرور قياس من أقيسة إبليس لعنه الله تعالى، أنهم ينظرون مرة إلى نعم الله تعالى عليهم في الدنيا، فيقسون عليها نعم الآخرة، ومرة إلى تأخير عذاب الله عنهم في الدنيا، فيقسون عليها عذاب الآخرة، كما أخبر الله تعالى عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ الآية.

ومرة ينظرون إلى المؤمنين وهم فقراء، فيزدرونهم ويقولون: ﴿أَهْوَاءَ مَنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ ويقولون: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ وترثيب القياس الذي نظم في قلوبهم أنهم يقولون: قد أحسنَ الله إلينا بنعم الدنيا وهو محب، وكل مُحِبٌّ مُحْسِنٌ، لا بل يكون محسناً ولا يكون مُحِبًّا، بل ربُّما يكون أحسن لسبب الهلاك على الاستراج، وذلك محض الغرور بالله عز وجل، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَحْمِي عَبْدَهُ مِنَ الدُّنْيَا، كَمَا يَحْمِي أَحَدَكُمْ مَرِيضَهُ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَهُوَ مُحِبُّهُ﴾ ولذلك كان أرباب البصائر إذا أقبلت عليهم الدنيا حزنوا، وإذا أقبل عليهم الفقر فرحوا، وقالوا: مرحباً بشعار الصالحين، فقد قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾ الآية..

وقال تعالى: ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون، وأملئ لهم إن كيدي متين﴾، وقال تعالى: ﴿فلما نسوا ما ذُكِّروا به فتحتنا عليهم أبواب كل شيء، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة، فإذا هم مبلسون﴾ فمن آمن بالله تعالى لم يأمن من هذا الغرور، ومنشأ هذا الغرور الجهل بالله تعالى وبصفاته، فإن من عرف الله تعالى، فلا يأمن من مكره تعالى، أفلا ينظرون إلى فرعون وهامان وثمود، وماذا حلَّ بهم مع أن الله أعطاهم من المال، وقد حذرَّ الله تعالى مكره، فقال تعالى: ﴿فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾، وقال تعالى: ﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾ وقال تعالى: ﴿فمَهْلُ الكافرين أمهلهم رويدا﴾ فمن أولي نعمة يحذر أن تكون نعمة.

وأما غرور العصاة بالله من المؤمنين، فقولهم غفور رحيم وإنا نرجو عفوه فاتكّلوا على ذلك وأهملوا الأعمال، وذلك من قبل الرجاء، ومن ظنَّ أنه ينجو بتقوى أهله، كمن ظنَّ أنه يشبع بأكل أبيه، أو يروي بشراب أبيه، والتقوى فرض عين.

لا يجزي والد عن ولده، يومَ يَقْرَأُ المرءُ من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبه وبنيه إلا على سبيل الشفاعة، ونسوا قوله عليه الصلاة والسلام: ﴿الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْأَحْمَقُ مَنْ اتَّبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَاتِي﴾، وقوله جلَّ وعلى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ وهل يصلح الرجاء إلا أن يتقدمه عمل، وإلا فهو غرور لا محالة.

وَيَقْرُبُ مِنْهُمْ طَوَائِفُ لَهُمْ طَاعَاتٌ وَمَعَاصِي إِلَّا أَنْ مَعَاصِيَهُمْ أَكْثَرُ وَهُمْ يَتَوَقَّعُونَ الْمَغْفِرَةَ وَيُظَنُّونَ أَنَّ كَفَّةَ حَسَنَاتِهِمْ تُرَجَّحُ أَكْثَرَ مِنْ كَفَّةِ السَّيِّئَاتِ، وَهَذَا غَايَةُ الْجَهْلِ، فَتَرَى الْوَاحِدَ يَتَصَدَّقُ بِدِرَاهِمٍ مَعْدُودَةٍ مِنَ الْخَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَيَكُونُ مَا يَتَنَاوَلُهُ مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ، وَالشَّبَهَاتِ أَضْعَافَهُ، وَهُوَ كَمَنْ وَضَعَ فِي كَفَّةِ الْمِيزَانِ عَشْرَةَ دِرَاهِمٍ، وَوَضَعَ فِي الْكَفَّةِ الْآخَرَى أَلْفًا، وَأَرَادَ أَنْ تَمِيلَ الْكَفَّةُ الَّتِي فِيهَا الْعَشْرَةُ، وَذَلِكَ نَهَايَةُ الْجَهْلِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ طَاعَتَهُ أَكْثَرَ مِنْ مَعَاصِيِهِ، وَإِذَا عَمِلَ طَاعَةً حَفِظَهَا وَأَعْتَدَ بِهَا كَالَّذِي يَسْتَغْفِرُ بِلسَانِهِ وَيُسَبِّحُ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِثْلًا مِائَةَ مَرَّةٍ، ثُمَّ يَغْتَابُ الْمُسْلِمِينَ، وَيَتَكَلَّمُ بِمَا لَا يَرْضَى اللَّهُ طَوَالَ النَّهَارِ، وَيَلْتَقِ إِلَى مَا وَرَدَ فِي فَضْلِ التَّسْبِيحِ، وَيَغْفُلُ عَمَّا وَرَدَ فِي عِقَابِ الْكَذَّابِينَ وَالزَّاهِقِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، وَذَلِكَ مُحَضُّ الْغُرُورِ.

وَأَمَّا عَنْ أَصْنَافِ الْمَغْرُورِينَ وَأَقْسَامِهِمْ، فَجَدَّ أَنْ الصَّنِفَ الْأَوَّلَ مِنَ الْمَغْرُورِينَ: الْعُلَمَاءُ، وَالْمَغْرُورُونَ مِنْهُمْ فَرَقٌ.

فَرَقَةٌ مِنْهُمْ لَمَّا أَحْكَمَتِ الْعُلُومُ الشَّرْعِيَّةُ وَالْعَقْلِيَّةُ تَعَمَّقُوا فِيهَا وَاشْتَغَلُوا بِهَا، وَاهْتَمَلُوا تَفَقُّدَ الْجَوَارِحِ وَحَفِظَهَا مِنَ الْمَعَاصِي وَإِلْزَامِهَا الطَّاعَاتِ، فَاعْتَرَوْا بِعِلْمِهِمْ، فَإِنَّهُمْ لَوْ نَظَرُوا بِعَيْنِ الْبَصِيرَةِ، عَلِمُوا أَنَّ الْعِلْمَ عِلْمَانِ:

عِلْمُ مَعَامِلَةٍ، وَعِلْمُ مَكَاشِفَةٍ: وَهُوَ الْعِلْمُ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَبِصِفَاتِهِ، وَلَا بَدَّ مِنْ عِلْمِ الْمَعَامِلَةِ، لِتَمِّمِ الْحِكْمَةَ الْمَقْصُودَةَ، وَهِيَ الْعِلْمُ بِمَعْرِفَةِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَمَعْرِفَةِ أَخْلَاقِ النَّاسِ الْمَذْمُومَةِ وَالْمَحْمُودَةِ. وَمِثَالُهُمْ: مِثَالُ طَبِيبٍ، طَبَّ غَيْرِهِ، وَهُوَ عَلِيلٌ قَادِرٌ عَلَى طَبِّ نَفْسِهِ وَلَمْ يَفْعَلْ، وَهَلْ يَنْفَعُ الدَّوَاءُ بِالْوَصْفِ؟ هِيَاهُ.

وقد غفلوا عن قوله سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ نَسَاهَا﴾.

وفرقَة أخرى أحكموا العلم والعمل الظاهر، وتركوا المعاصي الظاهرة، وغفلوا عن قلوبهم، فلم يمحوا منها الصفات المذمومة عند الله كالكبر، والرياء، والحسد وطلب الرئاسة، والمُلا، وإرادة الثناء من الأقران والشركاء، وطلب الشهرة في البلاد والعباد، وذلك غرور سببه غفلتهم عن قوله عليه الصلاة والسلام "الرياء شرك الأصغر"، وقوله: "الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب"، وقوله عليه الصلاة والسلام: "حب المال والشرف ينبئان النفاق في القلب كما ينبئ الماء البقل".. إلى غير ذلك من الأخبار، وغفلوا عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾. فغفلوا عن قلوبهم واستغلوا بظواهرهم، ومن لا يصفى قلبه لا تصح طاعته، ويكون كمرضى ظهر به الجرب، فأمر بالطلاء وبشرب الدواء، فاستغل بالطلاء وترك شرب الدواء، فأزال امتزاج الظاهر ما بظاهره، وأطلى ما على ظاهره بما في باطنه، فلا يزال جربه يزداد به مما في باطنه، فلذلك الخبائث إذا كانت كامنة في القلب يظهر أثرها على الجوارح.

وفرقَة أخرى علموا هذه الأخلاق الباطنة، وعلموا أنها مذمومة من وجه الشرع، إلا أنهم لعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها، وأنهم أرفع عند الله تعالى من أن يبتليهم بذلك، وإنما يبتلي به العوام دون من بلغ مبلغهم في العلم، فأما هم فأعظم عند الله من أن يبتليهم، فظهرت عليهم مخايل الكبر والرياسة وطلب العلو والشرف وغرورهم أنهم ظنوا أن ذلك ليس بكبر، وإنما هو عز للدين، وإظهار لشرف العلم، ونصرة لدين الله تعالى.

وفرقة أخرى أحكموا العلم وطهروا الجوارح وزينوها بالطاعات،
 يجتنبوا ظاهر المعاصي وتفقّدوا النفس، وصفات القلب من الرياء والحسد
 والكبر، وطلب العلو، وجاهدوا أنفسهم في التبري منها، وقلعوا من القلب
 منابتها الجليلة القوية، ولكنهم مغرورون إذ بقي في زوايا القلب من خفايا
 مكائد الشيطان، فلم يفتنوا لها وأهملوها ومثلهم كمثل من يريد تنقية الزرع
 من الحشيش.

وفرقة أخرى تركوا المهم من العلوم واقتصروا على علوم الفتاوى
 في الحكومات والخصومات وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين
 الخلق لمصالح المعاش، وخصصوا اسم الفقه وسموه الفقه وعلم المذاهب،
 وربما ضيّعوا مع ذلك علم الأعمال الظاهرة والباطنة، ولم يفتقدوا الجوارح،
 ولم يحرموا اللسان من الغيبة، والبطن من الحرام والرجل عن السعي إلى
 السلاطين، وكذا بائس الجوارح، ولم يحرموا قلوبهم عن الكبر والرياء
 والحسد، وسائر المهلكات، وهؤلاء مغرورون من وجهين: أحدهما: من
 حيث العمل، وقد ذكرت وجوه علاجه في الأحياء "أحياء علوم الدين"، وإن
 مثالهم مثال المريض الذي يعلم الدواء من الحكماء ولم يعمل به، وهؤلاء
 مشرفون على الهلاك من حيث إنهم تركوا تركية أنفسهم وتحليلتها، فاشتغلوا
 بكتاب الحيض والذنيات والدعاوى والطهارة واللعان، وضيعوا أعمارهم
 فيها، وإنما غرهم تعظيم الخلق لهم وكرامتهم.

والثاني: من حيث العلم وذلك لظنهم إنه لا علم إلا بذلك وأنه
 المنجي الموصول، وإنما المنجي الموصول حب الله، ولا يتصور حب الله
 تعالى إلا بمعرفته، ومعرفة ثلاثه: معرفة الذات، ومعرفة الصفات،
 ومعرفة الأفعال، ومثال هؤلاء مثال من اقتصر على بيع الزاد في طريق

الحج. ولم يعلم أن الفقه هو الفقه عن الله تعالى، ومعرفة صفاته المرجوة يستشعر القلب الخوف ويلزم التقوى كما قال تعالى: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾.

وفرقة أخرى اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة والرّد على المخالفين وتتبع مناقضاتهم، واستكثروا من علم المقالات المختلفة واشتغلوا بتعلم الطريق في مناظرة أولئك وإقحامهم، ولكنهم على فرقتين: الفرقة الأولى مضلة، والأخرى مُحَقَّة.

أما غرور الفرقة الضالة؛ فلغفلتها عن ضلالتها، وظنها بنفسها النجاة، وهم فرق كثيرة يكفر بعضهم بعضا.. وأما غرور المحقة فمن حيث إنهم ظنوا بالجدال إنما هم الأمور وأفضل العربات في دين الله تعالى، وزعموا أنه لا يتم أحد دينه ما لم يفحص ويبحث.

وفرقة أخرى اشتغلوا بالوعظ، وأعلام فيه من يتكلم في أخلاق النفس وصفات القلب من: الخوف، والرجاء، والصبر، والشكر والتوكل، والزهد، واليقين، والإخلاص، والصدق، وهم مغرورون؛ لأنهم يظنون بأنفسهم إذا تكلموا بهذه الصفات ودعوا الخلق إليها أنهم قد اتصفوا بها وهم منفكون عنها، وعن قدر يسير يعجبون بأنفسهم غاية الإعجاب، ويظنون أنهم ما يتحروا في علم المحبة إلا وهم محبوبون لله تعالى، وما قدروا على تحقيق دقائق الإخلاص إلا وهم مخلصون، ولا وقفوا على خفايا عيوب النفس إلا وهم عنها منزهون.

وفرقة أخرى منهم عتبلوا عن المنهج الواجب في الوعظ، وهم وعاظ أهل الزمان كافة إلا مَنْ عصمه الله تبارك وتعالى بالطاعات والنصح وتلقيق كلمات خارجة عن قانون الشرع، والعدل طلبا للأعزاب،

وتسجيع الألفاظ وتلفيقها، وأكثر همتهم في الأسجاع والاشتجار بأشعار الوصال، والفراق، وغرضهم أن يكثر في مجلسهم الزعاق، والتواجد ولو على أغراض فاسدة، وهؤلاء شياطين الإنس ضلّوا وأضلّوا.. فهؤلاء يصدون عن السبيل، ويزيدهم كلامهم جرأة على المعاصي ورغبة في الدنيا لا سيما إذا كان الواعظ مترينا بالثياب والخيل والمواكب ويقنطهم من رحمة الله تعالى.

وفرقة أخرى شغلوا بكلام الزهاد وأحاديثهم في ذم الدنيا فيعيدونها على المنابر وبعضهم في المحاريب، وبعضهم في الأسواق مع الجلساء، ويظن أنه ناج عند الله، وأنه مغفور له بحفظه لكلام الزهاد مع خلوه من العمل وهؤلاء أشد غرورا ممن كان قبلهم.

وفرقة أخرى شغلوا أوقاتهم في علم الحديث أعني سماعه وجمع الروايات الكثيرة منه، وطلب الأسانيد القريبة العالية، فهمة أحدهم أن يدور في البلاد ويروي عن الشيوخ ليقول: "أنا أروي عن فلان، ورأيت فلاناً، وليقبت فلاناً، ومعني من الأسانيد مما ليس مع غيري". وغرورهم من وجوه منها: إنها كحملة الأسفار، فإنهم لا يصرفون العناية إلى فهم السنة وتدبر معانيها، وإنما هم قاصرون على النقل ويظنون أن ذلك يكفهم...

وفرقة أخرى اشتغلوا بعلم النحو والشعر، واللغة وغريبها واغترؤا به وزعموا أنه غير لهم، وأنهم من علماء الأمة، إذ قوام الدين والسنة بعلم اللغة والنحو فأنفوا أعمارهم في دقائق النحو واللغة، وذلك غرور، فلو عقلوا لعلموا أن لغة العرب كلغة الترك، والمضيق عمره في لغة العرب كالمضيق عمره في لغة الترك والهند، وإنما فارقتهم لورود الشرع بها، فيكفي في اللغة علم اللغة العربية في الحديث والكتاب، ومن النحو ما يتعلق

بالحديث والكتاب، وأما التعمق إلى درجات لا تنتهى فهي فضول مستغنى عنه.

والصنف الثاني من المغرور من أرباب العبادات والأعمال، والمغرورون منه فرق كثيرة، فمنهم من غروره في الجهاد، ومنهم من غروره في الزهد، ومنهم فرقة أهملوا الفرائض واشتغلوا بالقضايا والنوافل.

وفرقة أخرى غلبت عليهم الوسوسة في نيّة الصلاة، فلا يدعه الشيطان يعتقد نيّة صحيحة، بل يُوسّس عليه حتى تفوته الجماعة، ويُخرج الصلاة عن الوقت، وإن أتم تكبيرة الإحرام، فيكون في قلبه تردد في صحة نيّته، وقد يتوسّس في التكبيرة، فيكون قد تغيرت صفة التكبير لشدة الاحتياط، ويغفّره سماع الفاتحة، ويغفلون ذلك في أول الصلاة ثم يغفلون في جميع الصلاة، ولا يحضرون قلوبهم ويفترون بذلك. ولم يعلموا أن حضور القلب في الصلاة هو الواجب، وإنما غرهم إبليس وزين لهم، وقال لهم: إن هذا الاحتياط يتميزون به عن العوام.

وفرقة أخرى غلبت عليها الوسوسة في إخراج حروف الفاتحة، وسائر الأذكار من مخرجها، فلا يزال يحتاط في التشديدات، والفرق بين الضاد والظاء لا يهمه غير ذلك، ولا يتفكر في أسرار الفاتحة ولا في معانيها، ولم يعلم أنه لم يكلف الخلق في تلاوة القرآن من تحقيق مخرج الحروف إلا ما جرت به عادتهم في الكلام، وهذا غرور عظيم.

وفرقة أخرى اغترّوا بقراءة القرآن، فيهدرونه هدرا، وربما يختمونه في اليوم والليلة ختمات، وأسنتهم تجري به، وقلوبهم تتردد في أودية الآمال، والتفكر في الدنيا، ولا يتفكر في معاني القرآن؛ لينزجر

ويُنْعَظُ بمواعظه، ويقف عند أوامره ونواهيه، ويعتبر بمواضع الاعتبار منه، ويتلذذ به من حيث المعنى لا من حيث النظم، وَمَنْ قَرَأَ كتاب الله في اليوم والليلة مائة مرة، ثم ترك أوامره ونواهيه فهو مستحق للعقوبة. وفرقة أخرى اغتروا بالصوم، وربما صاموا الدهر، وصاموا الأيام الشريفة، وهم فيها لا يحفظون أنفسهم من الغيبة، ولا خواطرهم من الرياء، ولا بطونهم من الحرام عند الإفطار.. وذلك غرور عظيم، وهؤلاء تركوا الواجب واتبعوا المندوب، وظنوا أنهم مسلمون، وهيهات، إنما يسلم من أتى الله بقلب سليم.

وفرقة أخرى اغتروا بالحج من غير خروج الزاد الحلال، وربما يضيعون الصلاة المكتوبة في الطريق، ويعجزون عن طهارة الثوب والبدن، وهو يطلب الرياء والسمعة.

وفرقة أخرى ينكرون على الناس ويأمروهم بالخير وينسون أنفسهم، وإنما غرض هؤلاء الرياء والسمعة وحب الرئاسة.. وقد ذكرهم الله تعالى بقوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وفي ذلك يقول الشاعر:

غير نقي يأمر الناس بالتقى .: طبيب يداوي والطبيب مريض.

وفرقة أخرى جاؤوا بمكة والمدينة، واغتروا بها ولم يراقبوا قلوبهم، ولم يُظهِروا ظواهرهم، وبواطنهم، وربما كانت قلوبهم متعلقة ببلادهم، وترامح يتحدثون بذلك، ويقولون جاؤنا بمكة كذا وكذا سنة، وهم مغرورون؛ لأن الأقوم لهم أن يكونوا ببلدة وقلوبهم متعلقة بمكة، وإن جاؤوا بالمدينة حفظ حق النبي ﷺ، ومن يقرر على ذلك، وهؤلاء مغرورون بالظواهر.

وفرقة أخرى زهدت في المال، وقنعت من الطعام واللباس بالدون، ومن المسكن بالمساجد، وظنت أنها أدركت رتبة الزهاد، وهم مع ذلك راغبون في الرئاسة، والجاه، والزهادة، وإنما تُحَصِّلُ بأحد أشياء، إما بالعلم أو بالوعظ أو بمجرد الزهد، فقد تركوا أهون الأمور، وباعوا بأعظم الهالكين، فإن الجاه أعظم من المال، ولو أخذ المال وترك الجاه كان إلى السلامة أقرب، وغرور هؤلاء بظنهم من الزهاد في الدنيا، ولم يفهموا كيف مَكَّرَ بهم، وربُّما يقدم الأغنياء على الفقراء. ومنهم من يعجب بعلمه، ومنهم مَنْ يؤثر الخلوة وهو عن شروطها خالٍ، ومنهم مَنْ يعطي المال، فلا يأخذه خِيَقَةً أَنْ يَقَالَ بَطُلُ زهده، وهو راغب في الدنيا خائف من ذم الناس.

ومنهم من شَدَّدَ على نفسه في أَعْمَالِ الجوارح، حتى يصلّى في اليوم والليلة مثلاً ألف ركعة ويختم القرآن، وهو في جميع ذلك لا يخطر له مراعاة القلب وتفقده وتطهيره من الرياء والكبر والعجب وسائر المهلكات، وربما يظن أن العبادة الظاهرة ترجح بها كفة الحسنات وهيهات، نَرَّةَ من نَرَى تقوى وخلقاً واحد من خلق الأكياس أفضل من أمثال الجبال تملأ الجوارح، ثم قد يغتر بقول مَنْ يقول له إنك من أولاد الأرض وأولياء الله وأحبائه، فيفرح بذلك، ويظهر له تركية نفسه، ولو شوت يوماً واحداً ثلاث مرات أو مرتين لكثُرَ وجاهد من فعل ذلك به، وربما قال لمن يسميه لا يغفر الله لك أبداً.

وفرقة أخرى حرصت على النوافل ولم يعظم اعتدادها بالفرائض، فتارة يفرح بصلاة الضحى وصلاة الليل، وأمثال هذه النوافل، فلا يجد لصلاة الفريضة لذة، ولا خير من الله تعالى لشدة حرصه على المبادرة في

أول الوقت، وينسى قوله ﷺ: ﴿ما تقرب المتقربون بأفضل من أداء ما افترضه الله عليهم﴾ وترك الترتيب من جملة الغُرُور.

الصَّنْفُ الثَّالِثُ مِنَ الْمَغْرُورِينَ

منهم فرق: فرقة منهم يحرصون على بناء المساجد والمدارس والرباطات والصهاريج للماء، وما يظهر للناس، ويكتبون أسماءهم بالأخذ عنهم ليتجدد ذكرهم، ويبقى بعد الموت أثرهم، وهم يظنون أنهم استحقوا المغفرة بذلك، وقد اغتروا فيه من وجهين:

أحدهما: أنهم قد اكتسبوا من الظلم والشبهات، والرثاء، والجهالات المحظورة، وهم قد تعرضوا لسخط الله في كسبها، ومن ثم قد عصوا الله في كسبها.

فالواجب عليهم التوبة، وردها إلى مالکها إن كانوا أحياء وإلى ورثتهم، فإن لم يبق منهم أحد وانقرضوا، فالواجب صرفها في أهم المصالح، وربما يكون الأهم التفرقة على المساكين، وأي فائدة في بنيان يستغني عنه ويتزكك ويموت، وإنما غلب على هؤلاء الرياء، ولذة الذكر.

والوجه الثاني: أنهم يَظُنُّون بأنفسهم الإخلاص، وقصد الخير في الإنفاق وعلو الأبنية، ولو كُلفَ أحد منهم أن يُنفِقَ ديناراً على مسكين لم تسمح نفسه بذلك؛ لأن حب المدح والثناء مستكن في باطنه.

وفرقة أخرى ربما اكتسبوا الحلال، واجتنبوا الحرام، والقعود على المساجد، وهي أيضاً مغرورة من وجهين:

أحدهما: الرياء وطلب السمعة والثناء، فإنه ربما يكون في جواره أوتيليه فقراء، وصرف المال إليهم أهم، فإن المساجد كثيرة، والغرض منها الجامع وحده، فيجزي عن غيره، وليس الغرض بناء مسجد في كل سكة، وفي كل درب، والمساكين والفقراء محتاجون، وإنما خَفَّ عليهم دفع المال

في بناء المساجد لظهور ذلك بين الناس، ولما يسمع من الثناء عليهم من الخلق، فيظن أنه يعمل لله، وهو يعمل لغير الله، والله أعلم بذلك.

والثالثي: أنه يُصَرَّف ذلك في زخرفة المساوي وتزيينها بالنقوش المنهي عنها والشاغلة لقلوب المصلين، وتشغلهم عن الخشوع في الصلاة، وعن حضور القلب، وهو المقصود وكل ما طرأ على المصلين في صلاتهم، وفي غير صلاتهم، فهو في رقة الباني للمسجد إذ لا يحل تزيين المسجد بوجه.

قال الحسن (رضي الله عنه): إن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبني مسجده بالمدينة أتاه جبريل، فقال له: "ابنه سبعة أذرع طولاً في السماء ولا تزخرفه ولا تقشمه". وغرور هؤلاء رأوا المنكر معروفاً، فاتكلوا عليه. وفرقة أخرى ينفقون الأموال في الصدقات على الفقراء والمساكين، ويطلبون به المحافل الجامعة، وربما تركوا جيرانهم جاعين، ولذلك قال ابن عباس (رضي الله عنه): "في آخر الزمان يكثر الحج بلا سبب يهوى فيهم السفر، ويبسط لهم في الرزق محرمون مسلوبون يهوى يأخذهم أحدهم بغيره بين القفار والرمال، وجاره مأسور إلى جنبه فلا يواسيه ولا يتفقده.

وفرقة أخرى من أرباب الأموال يحفظون الأموال، ويمسكونها بحكم البخل، ويشتغلون بالعبادات البدنية التي لا يحتاجون فيها إلى نفقة كصيام النهار وقيام الليل، وختم القرآن، وهؤلاء مغرورون، لأن البخل المهلك قد استولي على باطنهم فهم محتاجون إلى قمعه باخراج المال، فاشتغلوا بطلب فضائل هم يستغنون عنها ومثاله مثل من دخل في تربة حية وقد أشرف على الهلاك وهو مشغول عنها بطلب السكجيين ليسكن به الصفرء، ومن لدغته الحية كيف يحتاج إلى ذلك؟

ولذا قيل لبشير: أن فلانا كثير الصوم والصلاة، فقال: "المسكين ترك خاله، ودخل في حال غيره، وإنما حال هذا إطعام الطعام للجائع، والإنفاق على المساكين، فهو أفضل له من تجويع نفسه، ومن صلاته من جمعه للدنيا ومنعه للفقراء".

وفرقة أخرى غلب عليهم البخل، فلا تسمح نفوسهم إلا بإداء الزكاة فقط، ثم إنهم يخرجونها من المال الخبيث الردي الذي يرغبون عنه.. وذلك مفسد للنية محبط للعمل، وصاحبه مغرور بظن أنه مطيع لله تعالى، فهذا وغيره وأمثاله مغرورون بالأموال.

وفرقة أخرى من عوالم الخلق، وأرباب الأموال والفقراء، اعتزوا بحضور مجالس الذكر، واعتقدوا أن هذا يغنيهم ويكفيهم، فاتخذوا ذلك يظنون أن لهم على مجرد سماع الوعظ دون العمل ودون الاعتناء أجراً وهم مغرورون؛ لأن فضل مجالس الذكر لكونها مرغوبة في الخير، وإذا لم تهيج الرغبة فلا خير فيها.

الصنف الرابع من المغرورين

المتصوفة، وما أغلب الغرور على هؤلاء المغرورين منهم:
مُتَصَوِّفَةٌ أَهْلُ هَذَا الزَّمَانِ، إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ، اغْتَرَوْا بِالْبَيْنِ
وَالْمَنْطِقِ، وَالْهَيْئَةِ، فَشَابَهُوا لِلصَّادِقِينَ مِنَ الصُّوفِيَّةِ فِي زِيَّهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ
وَأَلْفَاظِهِمْ وَأَدَابِهِمْ وَمِرَاسِمِهِمْ وَاصْطِلَاحَاتِهِمْ، وَأَحْوَالِهِمْ الظَّاهِرَةَ فِي السَّمَاعِ،
وَالرَّقْصِ، وَالطَّهَارَةِ، وَالْجُلُوسِ عَلَى السَّجَادَةِ مَعَ إِطْرَاقِ الرَّأْسِ، وَإِدْخَالِهِ
فِي الْجَيْبِ كَالْمَتَفَكِّرِ، أَوْ خَفَضِ الصَّوْتِ فِي الْحَدِيثِ، وَفِي الصِّيَاحِ.. إِلَى
غَيْرِ ذَلِكَ، فَلَمَّا تَعَلَّمُوا ذَلِكَ ظَنُّوا أَنَّ ذَلِكَ يَنْجِيهِمْ، وَلَمْ يَتَعَبَوْا أَنْفُسَهُمْ قَطُّ
بِالْمُجَاهَدَةِ وَالرِّيَاضَةِ، وَالْمِرَاقِبَةِ لِلْقَلْبِ فِي تَطْهِيرِ الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ.. وَكُلَّ
ذَلِكَ مِنْ مَنَازِلِ الصُّوفِيَّةِ، ثُمَّ إِنَّهُمْ يَتَكَلَّبُونَ عَلَى الْحَرَامِ، وَالشَّبَهَاتِ، وَأَمْوَالِ
السُّلَاطِينِ وَيَتَنَافَسُونَ فِي الرِّغِيفِ وَاللِّبْسِ وَالْجَبَةِ، وَيَتَحَاسَدُونَ عَلَى الْغَيْرِ
وَالْقَطْمِيرِ، وَيَفْزُقُ بَعْضُهُمْ أَعْرَاضَ بَعْضٍ مِمَّا خَالَفَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ غَرَضِهِ،
وَهَؤُلَاءِ مَغْرُورُونَ.

وَفَرَقَةٌ أُخْرَى أَزْدَادَتْ عَلَى هَؤُلَاءِ فِي الْغُرُورِ أَنَّهَا صَغُبَتْ عَلَيْهَا
بَذَالَةُ الثِّيَابِ وَالرِّضَا بِالْذُّونِ فِي الْمَطْعَمِ وَالْمَنَكَحِ وَالْمَسْكَنِ، وَأَرَادَتْ أَنْ
تُسْتَظَاهَرَ بِالتَّصَوُّفِ وَلَمْ تُجِدْ بَدَأَ مِنَ التَّرْتِي بِزِيَّهِمْ، فَتَرَكْتَ الْخَزْ وَالْإِبْرَسِيمَ،
وَطَلَبْتَ الْمَرْقَعَاتِ النَّفِيسَةَ وَالْقُوطِ الرَّفِيعَةَ، وَالسَّجَادَةَ الْمَصْبُوغَةَ، وَلَا
يَجْتَنِبُونَ مَعْصِيَةَ ظَاهِرَةٍ فَكَيْفَ بَاطِنَةٍ وَإِنَّمَا غَرَضُهُمْ رَغْدُ الْعَيْشِ، وَأَكْلُ
أَمْوَالِ السُّلَاطِينِ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَظُنُّونَ بِأَنْفُسِهِمُ الْخَيْرَ، وَضُرَرُ هَؤُلَاءِ أَشَدُّ
مِنْ ضُرَرِ اللُّصُوصِ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ يَسْرِقُونَ الْقُلُوبَ بِالزِّيِّ وَيَقْتَدِي بِهِمُ الْغَيْرُ
فَيَكُونُ سَبَبَ هَلَاكِهِمْ. وَمَنْ أَطْلَعَ عَلَى فُضَاتِهِمْ، ظَنَّ أَنَّ التَّصَوُّفَ كَذَلِكَ،
فَيُصْرِحُ بِذَمِّ الصُّوفِيَّةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ.

وفرقه أخرى ادعت علم المكاشفة، ومشاهدة الحق، ومجازاة المقامات والوصول، والملازمة في عين الشهود، والوصول إلى القرب، ولا يعرف ذلك، ولا وصل إليه باللفظ والاسم، ويلقى مع الألفاظ الطامة كلمات فهو يرددها، ويظن أن ذلك أعلى علم الأولين والآخرين، وهو ينظر إلى الفقراء والمقربين والمفسدين والمحدثين، وأصناف العلماء بعين الازدراء، فصلاً عن العوام، حتى الفلاح في فلاحته، والحيك في حياكته ويلزمهم أياماً معدودة، ويلقى تلك الكلمات الزائفة، فتراه يرددها كأنه يتكلم عن الوحي، ويخبر عن أسرار الأسرار، ويستحقر بذلك جميع العباد والعلماء، فيقول في العباد: أجراء متقربون، ويقول في العلماء إنهم بالحديث محجوبون، ويدعي في نفسه أنه الواصل إلى الحق وأنه من المقربين، وهو عند الله من الفجار المنافقين، وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين، لم يحكم قط علماً ولا يهذب خلقاً، ولم يراقب قلباً سوى اتباع الهوى وتلقيق الهذيان.

ولو اشتغلوا بما ينفعهم كان أحسن لهم.

وفرقه أخرى جاوزت هؤلاء فأحسنّت الأعمال، وطلبت الحلال، واشتغلت باستفاد القلب، فمنهم من يدعي المقامات من : الزهد، والتوكل، والرضا، والحب من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات، وشروطها، وعلاماتها، وأقائنها، فمنهم من يدعي الوجد، وحب الله تعالى، ويزعم أنه آية الله تعالى، ولعله قد يتخيل بالله تعالى خيالات فاسدة، هي بدعة أو كفر، فيدعي حب الله تعالى ونيل معرفته، وذلك لا يتصوره قط، ثم إنه لا يخلو من مفارقة ما يكره الله تعالى وإيثار هوى نفسه على أمر الله تعالى، وعن ترك بعض الأمور حياة من الخلق، ولو خلا ما تركها حياة من الله تعالى.

وفرقه أخرى ضيقّت على أنفسها أمر القوت حتى طلبت منه الحلال الخالص، وأهمّلت منه تفقد القلب والجوارح من غير هذه الخصلة الواحدة، ومنهم من أهمل الحلال في مطعمه وملبسه ومكسبه، ولم يدر المسكين أن الله تعالى لم يرض من العباد إلا بالكمال والطاعات، فمن اتبع البعض وأهمّل البعض فهو مغرور.

وفرقه أخرى ادّعت حسن الخلق، والتواضع والسّماحة، فقصدوا الخدمة للصوفية، فجمعوا قوماً وتكلّفوا خدمتهم، واتخذوا ذلك شبكة للحطام، وجمعاً للمال دائماً غرضهم الاتفاق والاتساع، وهم يظهرون أن غرضهم الخدمة والتبعية، ثم إنهم يجمعون من الحرام والمشبّهات لينفق عليهم لتكثر اتّباعهم، وينشر بالخدمة اسمهم. وبعضهم يأخذ من أموال السلطان وينفق عليهم، وبعضهم من يأخذ لينفق في طريق الحج على الصوفية، ويزعم أن غرضه البر والإنفاق، ويأخذ جميعهم الرياء والسمعة. وذلك إهمالهم لجميع أوامر الله تعالى ظاهراً ورضاهم يأخذ الجزاء، والإنفاق منه، ومثال ذلك : الذي ينفق ماله الحرام في طريق الحج.

وفرقه أخرى اشتعلت بالمجاهدة، وتهذيب الأخلاق، وتطهير النفس من غيوبها، وساروا يتحمقون فيها، فاتخذوا البحث عن عيوب النفس، ومعرفة خداعها علماً وحرقة لهم، فهم في جميع أحوالهم يشتغلون بالحفظ عن عيوب النفس، واستنباط دقيق الكلام في آفاتهما.

وفرقه أخرى جاوزت هذه المرتبة، حيث انفتحت لهم أبواب المعرفة، فلمّا شبعوا من مبادئ المعرفة رائحة تعجّبوا منها وفرحوا بها وأعجبهم غراسها، فتعلقت قلوبهم بالالتفات إليها والتفكير فيها، وفي كيفية انفتاح بابها عليهم، واتسدادها على غيرهم، وكل ذلك غرور؛ لأن عجائب

طريق الله تعالى ليس لها نهاية، فمن وقف مع كل أعجوبة، وتقيد بها
فصرت خطاه، وحرِم الوصول إلى المقصد.

وفرقة أخرى جاوزت هؤلاء، ولم تلتفت إلى ما يفيض عليها من
الأنوار في الطريق ولا إلى ما تيسر لهم من العطايا الجزيلة، ولم يلتفتوا
إليها ولا عرجوا عليها، بل ساروا جادين في السير، فلما قاربوا الوصول
ظنوا أنهم وصلوا، فوقفوا ولم يتعدوا ذلك وغلطوا، فإن الله تعالى له
سبعون حجاباً من نور، ولا يصل السالك إلى حجاب من تلك الحجب إلا
ويظن أنه قد وصل، وإليه الإشارة بقوله تعالى إخباراً عن إبراهيم عليه
أفضل الصلاة والسلام : ﴿إِذْ قَالَ : قَلَمًا جَن عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا﴾
الآية.. وما أكثر ما في هذا المقام، فأول حجاب بين العبد وربّه نفسه، فإنه
أمر رباني عظيم، وهو نور من أنوار الله تعالى، أعني سر القلب الذي
ستجلى حقيقته. وهو في أول الأمر محجوب بمشكاة هي الساترة له، فإذا
تجلى نوره وانكشف جمال القلب بعد إشراق نور الله تعالى عليه، ربما
التفت صاحب القلب إلى القلب فرأى من جماله الفائق ما يدهشه، وربما
صرخ وقال : أنا الحق. فإن لم يتضح له ما وراء ذلك ووقف عنده هلك.
ولهذه العين نظر النصارى إلى المسيح عليه الصلاة والسلام لما رأوا من
إشراق نور الله تعالى عليه، فغلطوا كمن رأى كوكباً في مرآة أو في ماء،
فيمد يده ليأخذ، فهو مغرور.

وأنواع الغرور في طريق السلوك إلى الله تعالى لا تحصى في
مجذات، ولا تُستقصى إلا بعد شرح جميع العلوم.

- 2 -

كتاب منهاج العابدين

"تحليل وفهم وتبصير"

أولاً: نماذج المخطوطة

كتاب لا فتراج العباد اليه

تأليف الشيخ الامام والخير الامام

قدوة العلماء الامين والبر

معلوم سيد المرسلين

والعادي يات الله تعالى

محمد محمد بن محمد

الفالي بن محمد

الله برحمته

وقتنا

مدني

البي

هذا الكتاب هو بيان بوجوب

توحيدها المحسن ان يكون اذ ذرعيها وقطبي جوهرا مكنون

من كلام الامام ابي القاسم رضي الله عنه

قال الله اوحى الذي لا يعمى القادر عما لا يرى

سلكنا فيها سلكا مستقيما وسلفا منها ما رآه

ما كان الا وهو علمه عارضا

دار الفکر
الطبعة الاولى
الطبعة الثانية
الطبعة الثالثة
الطبعة الرابعة
الطبعة الخامسة
الطبعة السادسة
الطبعة السابعة
الطبعة الثامنة
الطبعة التاسعة
الطبعة العاشرة
الطبعة الحادية عشرة
الطبعة الثانية عشرة
الطبعة الثالثة عشرة
الطبعة الرابعة عشرة
الطبعة الخامسة عشرة
الطبعة السادسة عشرة
الطبعة السابعة عشرة
الطبعة الثامنة عشرة
الطبعة التاسعة عشرة
الطبعة العشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 قَالَ الشَّيْخُ الْأَمَامُ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَمَلَا الشَّيْخَ الْمَوْقُوفَ بِجِهَةِ الْأَسْلَامِ أَبُو
 مُحَمَّدٍ ابْنُ مُحَمَّدٍ ابْنِ مُحَمَّدٍ وَنَيْنَ الدِّينِ وَهُوَ الْقُرَاقِي وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ آخِرُ كُتَابِ صُغْفَرِهِ
 وَلَمْ يَقُمْ مِنْهُ إِلَّا خُصُوصُ أَصْحَابِهِ الْحُرِّ لِلَّهِ الْمَلِكِ الْعَلِيمِ الْجَوَادِّ الْكَرِيمِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ
 الَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقُدْرَتِهِ وَدَبَّرَ الْأُمُورَ فِي الدَّارَيْنِ بِحِكْمَتِهِ وَمَلَفَقَ
 الْحَيِّ وَالْأَنَسِ الْأَلْعِبَادَةَ فَالطَّرِيقَ وَأَفْضَلَ لِلْقَاصِدِينَ وَالْدَلِيلَ لِلْإِلَاحِ
 لِلنَّاطِقِينَ وَكَانَ اللَّهُ بِضَلِّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ عَلِيمٌ
 بِالْمُتَحَدِّثِينَ وَائْتِمَالَةَ وَالسَّلَامَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ وَعَلَى آلِهِ
 الْأَوَّلِينَ الْأَنْطَبِيِّينَ أَجْمَعِينَ وَسَلَّمَ وَبِعَظَمِ الْيَوْمِ الدِّينِ أَتَمُّوا
 أَخْبَارِي أَسْعَدَكُمْ اللَّهُ وَأَيُّهَايَ جَمْرَانَا إِنَّ الْعِبَادَةَ ثَمَرَةُ الْعِلْمِ وَفَايِدَةُ
 الْأَمْرِ وَمَا مِثْلُ الْعَبْدِ وَنَبْضَاةُ الْأَوْلِيَاءِ وَطَرِيقُ الْتَقْوَى وَفِيهِ الْأَخْرُجَةُ
 وَمَقْصِدُ ذَوِي الْأَهْمَةِ وَمَشَارِقُ الْكِرَامِ وَغُرَقَةُ الْجِبَالِ وَلُحْتِيَا وَذَوِي الْأَيْدِي
 وَهُوَ بَيْنَ الْمَعَادَةِ وَضَرْجِ الْبَيْتَةِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى وَإِذَا رَجَعْتُمْ فَاغْبُذُوا وَتَقَرَّبُوا إِلَىَّ
 أَنْهَذَا كَانَ كَلِمَةً جَزَافَةً وَمَا نَسِيتُكُمْ مَشْغُولًا ثُمَّ إِذَا نَظَرْتُ فِيهَا وَتَأَمَّلْتُهَا لَمْ أَظْهَرْ
 مَن سَامَرِيهَا إِلَيَّ مَقَاصِدُهَا الْفِي أَمَانٍ بِأَكْبَرِهَا فَادَّاهِي بِرَبِّهِ وَعَظِيمِ
 مَعْبُودِيهِ الْعَقْبَانَةُ شَدِيدَةُ الْمَشَادَةِ بَعِيدَةُ الْمَسَافَاتِ عَظِيمَةُ
 الْأَفَاتِ كَثِيرَةُ الْبَوَائِقِ وَالْمَوَاقِفِ الْمُهَيِّجَةِ الْمَهَاكِكِ وَالْمَقَاطِعِ غَنِيَّةُ الْأَعْدَاءِ
 وَكَانَ بِمَاءِ غَزِيرَةِ السَّجَى وَالْأَشْيَاءِ وَهَكَذَا يُجِيبُ أَنْ تَكُونَ لَدُنْهَا طَرِيقُ
 الْحَيَّةِ فَيُصِيبُ نَفْسَهُ يَقَالُ مَا قَالَ مَرْيَسُ الْأَعْمَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى سَلَّمَ أَنْ لَوْ جَعَلْتُ
 بِالْمَحَارَةِ وَأَنْ أَنَا نَضَعْتُ بِالشَّرَوَاتِ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْأَوَانُ
 الْبَيْتَةُ مَرْزُوقُ بَرِيَّةِ الْأَوَانِ النَّاسُ سَهْلٌ بِشَرِّهِ شَرٌّ ذَاتُهُ كُلُّهُ فَإِنَّ السَّيِّدَ
 ضَعِيفًا وَالزَّمَانَ صَعْبًا وَأَمْرُ الْمَدِينِ مَتَرَاوِعٌ وَالْعَمَلُ وَالْعَزَامُ قَلِيلٌ وَالشُّغْلُ كَثِيرٌ
 وَالْمَوْقِفُ فِي الْعَمَلِ يَقْعَبُ وَالنَّاسُ قَلِيلٌ بِصِيرٍ وَالْأَجَلُ قَرِيبٌ وَالْخَرْبُ بَعِيدٌ وَالطَّاعَةُ عَزِيمَةٌ

فلا بد منها وهي فائقة فلا سرح لها من ظنن ربا فقد كان وسعد ابي الاديبي
 ومن فاته ذلك خسره الناسين وهلك مع الصباكين فصار حجة الخطيب
 اذا وامه معجزا والخطير عظيمها ولذا لك عن من يقصد هذا الطريق وتلتم
 عن من القاصدين من سلكه ثم عن من السالكين من يصل الى المقصود ويظن
 بالطلوب وهم الذين اصطفاهم الله عن وجل بقرعة ورجته وسمهم
 بغيره وعظمته ثم املهم بفضله الي منزهة ورجته فنسلكه جل ذكره ان
 عيسكم وايانا ان اوليكه العايزين برحمته نعم من املنا وبعدنا هذا الطريق
 بهذه الصفة يظننا فاسع النظر في كينية قطرها وما يتاج ليه العبد
 من الذخيرة والعدة والدلة والحيلة من علم وعلى عبي ان يقتدوا بحسن
 قول الله تعالى في سورة مة لا يتقطع في عقبة الله لكه فيرك مع شركاين ولا ياذ
 باسم تعالى فمختار في قطع هذا المولينا وسلوكه كتابا حيا وعلوم الدين واسرار
 الحاصلات والقرينة الي الله تعالى وعنده ذلك ولصوت غيا داتين من العاود العبد
 المتاعم على افرام العالمة فمده حواظا وضاوا اجمالا ييسر مشرا ان يسلكهم اذبح
 من كلام مراد العالمين وقد قالوا انه اساطيرك ولين لم تسع الي قول ذي العابد يد
 علي بن الحسن بن بن علي بن ابي طالب جني الله عنه انه يقول وما يرتبها علم لها روح
 به ولا استعمل رجالا سلون دمي يوي من افق ما يلق نهج السيل الي استمن
 بعد الموت اني لا اكنم من علي جطره كندير الحق ذو وجل في شيتا وقدم في غيا ابن
 حسن الي العبيبي ومي قواه الشين استم في استنصت الثالثة ذوي المودة النمل
 الي كنفه خلع الله تعالى بعبث ارحمة وتركه المارة فاستهلك في مديدة لتعلم وان من
 الناس من يترتب في كتاب يترجم عليه الاجماع ويحصل براءة الاستماع فاجابني الذي يجيب
 المظن اذا دعاه لاطلعت نبعته على اسطر الله والرحمة فيه ترتيبا جليا لا اذكر في
 المصنفات التي اتممت في اسرار معاملة الدين وهو الذي اناله واصفي فاقبل من الله
 التوفيق لاقوالها يتبه العبد للعبادة ويتركك لتسلك طريقا

معلقة سماوية من الله تعالى وتوفيق خاص النبي وهو المعني بقوله
 سبحانه وتعالى انش شرح الله صدره للاسلام فهو علي نور
 من ربه وأشار اليه صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه فقال ان النبي
 اذا دخل القلب انتخب واشترق قيل يا رسول الله هل لك من علامة
 يعرف بها فقال التجاني عند دار العز ودار الانابة الي دار الخلود والكنز والدار
 تكون قبل نزول الميعت فاذا دخل قلب العبد اول كل شيء اتي
 العبد من غير النعم كالحياة والقدر والعقل والعلم والنطق
 وسائر المعاني الشريفة والذات وما يعرف عني من مشروب المصنوع والذات
 وان لهذه نعمًا يطالبني بشكره وخدومته وان اشغلت ذاك في مل عني
 نعمته وينبغي داسه ونعمته وقد بعث الي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
 تارة بعد اوقات الفارجة عند مقدار البش والخبز في ان لي ربًا
 جل ذكره قادر على ما يشاء قادر على ان يعاقبني اني
 عصيته وينبغي ان اطعته العاين كسري او ما يخفى في افكاري وقد
 وعدت اول وعد امر بالتزام قوانين الشرع فيقع في قلبه انه مملكت اذ
 لا يتألم لذلك في العقل باوله البديهة فيحاط على نفسه عند
 ولينع من هذا خاطر المتع الذي ينسب العبد ويلين به الحجة ويقطع عنه
 البذرة وينتجبه الي النظر والاستدلال فيحتاج العبد عند ذلك
 ويميل وينظر في طريق الخلاص وموصول الامان بما وقع بقلبه وسع فلم
 يجد فيه سبيل سوى ان ينظر بعقله في الدلائل والاستدلال بالاهم
 على اصناف ليعمل اه العلم اليقين بما هو والغيب ويعلم ان الله راكف
 وامره ورازقه من هذا اول عقبة استعصمت في شريعت العباد وحي
عقبة العلم والمعرفة ليكون من الاسرار بصيرة فاحذر
 قطعها من غير يد يمين النظر في الدلائل ووجوب التأمل والتعلم

والسوان من علما الاحقة اولد الطريق شرح الائمة وقادة الائمة والذ
 ستارة منهم واستشهد الدعاء الصالح منهم بالتوفيق والدعاء
 الي ان يقطعوا بتوفيق الله سبحانه فيحصل له العلم واليقين بالغيب
 وهو انه الهما واحد الاشريك له هو الذي خلقتهم وانعم عليه
 بكل هذه النعم والله كلفه شكره واشهد عظمته وطاعته بظاهره وباطنه
 وحذره الكفر وضد المايم وحكمه بالثواب الخالد ان اطاعه والعقاب
 الخالد ان عداياه وتولي عنه فعند ذلك بمشقة كثر في
 العرفه واليقين بالغيب حيلة الترشيع للخدمة والاقبال على العبادة
 لهذا السيد النعم الذي طلبه من جوده وعرفه بعد ما جعله ولكنه
 لا يدري كيف يعيده وما ذا يلزمه من خدمته بظاهره وباطنه
 وبعد حصول هذه المعرفة بالله سبحانه وقالي ويا يلزمه من عبادته
 الشريعة ظاهرا وباطنا فلما استكمل العلم والمعرفة بالعزايين انتم
 ليأخذ في الصبابة ويشتغل بها وتطرقا داموا صاحب جنابات وذو
 وهذه اعمال الكثر من الناس فيقولون كيف اقبل على العبادة وانما هم على
 المعصية تطلع بها فيعيب اولاد ان اتوب اليه لا يغفر لي ذنوبي ويعلم
 من اسرها وانظر من اوتارها فاعلم للخدمة وللباطن القربة فتستقبل
 ما هناك عبادة المتوهم فيحتاج الى العناية الي وطوع
 ليعمل الي ما هو المقصود منها فاحذ في ذلك يا قائم التوبة
 في شوطها وحقا يترى الي ان تضرها فلما جعلت له القربة الصادقة
 ونزع من هذه العقبة كثر الي العبادة ليأخذ فيها فنظر فاذا حوله
 عوايق بمحنة كل واحدة منها فتوجه عن قصد من العبادة بعقوب
 من التعويق تامل فاذا بي اربعة الدنيا والخلق والشيطان والنفس
 فانتاج لدمالة الي دفع هذه العوايق واناعتها والافلا يتاقي له

الخائب ومنهم من قال ليزان ولهم من لا يوافق ليزان الانفلا الساقية والله كما ورد
 الخوض على النبي صلى الله عليه وسلم فبشره لا ينطق بعد هذا الساقية حجة
 والاعتراف والاعتراف من النار حتى منهم من لا يسمع حجة الله بها وعنده النار
 الى الله تعالى ولا تنال الشفاعة في رحمت الله تعالى من شفاعة الا من شاء الله تعالى
 ولا صلاة ولا كرامة الشافعة والاولى ملك الابد في الجنة الكسوة والدر الثمينة والاصوات الاذن
 الى رب العالمين الله الاولين والآخرين بلى كيف جعل جلاله ثم نقول
 وانما اعدت ذلك على حسب شهيد مبلغ على نفسه روح وتقصيد ومع ذلك وقد
 اجلت واجزت وذلك من الاصول والحل ولو فعلت به من ذلك لما احدثنا الكتاب
 الا ربنا ايجد علمت ملك الابد خلعة واحدة وان تصدقنا لا اذ نتجت على اربعة
 خلعة من نوع الخوذة القصيرة واللباس وجبت من كل نوع يستعمل على توصيل
 لا يحيط بها الا العالم الغيب والمهارة التي حويناها وما لكها وما يبلغ لنا في
 معرفة ذلك وبناسجانه تعالى يقول فلا تعلم نفس ما اخفي بهم من قوة الا من
 رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم يقول فيها ما لا عين رأت ولا اذن سمعت
 ولا خطر على قلب بشر وان المفسرين يقولون في قوله تعالى لنشدنهم قديرا ان تنزل
 كلمات ربنا ان هذه الكلمات التي يقول الله عز وجل لا اله الا الله في الجنة بالظن
 والاركان ومن تكون حالة هذا ان لا يبلغ جزا من الفها الف جز منه ومن صلبه
 او يحيط بهم علم فربما يحيط كل ما بل نقاعدت الهمة ونفا صرحت ووقفت في شؤنا
 يكون ذلك كذلك وهو عطا العزيز العلم على مقتضى الفضل العظيم وحسب الجود
 القديم للمعلم ان يعلم العلم بالكون وليست له الجهود دون جهدهم لهذا المطوب
 العظيم ولعلوا ان ذلك كله لا قل قليل في جنب ما هم اليه محاسنون واما من يطلب
 وله يتبعون ولعلوا ان العبد لا بد له في الجنة على اربعة العلم والعلو والاعتراف
 والخوف فيعلم ولا انظرين والاخرى اعني ثم يقول العلم والاخرى يحوي ثم يحصل الفصل

والاعتراف

والوحيد صمد الخالق فليس له اول ولا اخر ولا طريق ولا اخر ولا قبل ولا علم ولا اخر ولا غيره
 بل هو غايه الغنى والافضل ميقون هم الانزال يخاف ويخجل من الافات التي لا تحصى الايمان
 والافضل مغزو والافضل هو ذوالنون المصري رحمه الله حيث يقول قال الخليل عليه السلام
 مولى الايمان والعلماء كلهم ينالوا العلمين والعاملين كلهم يفتنون العلمين
 والمخلصون على خطر عظيم فليست انا والعجب كل العجب من الربيه احدكم غافل
 غير عامل انا منهم لمرقه ما بين يديه اما يتعرف ما هو مطلع عليه بعد الموت عليه
 بالنظر في هذه الايات والعبر في استماع الى هذه الايات والنفوس الاخرى تخرج منها
 للعلم والافضل هو الذي يتعلم هذه النفس قال تعالى اويلكم ينظرون في ذلك و
 السموات والارض وما خلقوا من شيء وقال تعالى الا ينظرون انهم معبودون
 والافضل من عالم غير عامل اما يدرك علم يفتننا ما بين يديه من الاصول العظام
 والافضل البصائر وهذا هو البنا العظيم الذي اذنت عنه معبودون والافضل
 من عامل غير مخفي الايمان قوله تعالى فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره والافضل عليه عمل
 صالحا ولا يترك لعباده ربه لحوار والافضل من يخلص غير خائف اما ينظر الى عظمة
 جلاله سبحانه وتعالى مع اوليائه واصفيائه وخدمته الدائمة وبين حفته
 حتى يقول لاكرم الخلق عليه ولقد ادعى اليك والى الذين من قبلك الذين اسيرت
 بسيفهم الى الجحيم ونحوها حتى كان عليه السلام يقول شيعتي يهود
 ونصارى ومجوس واهل بيته عليه السلام وقبضيله ما قاله رب العالمين في بيع ابي بكر
 الصديق عليه السلام في قوله عز وجل انما خلقناكم عبدا لى ربك فارجعوا اليه قال
 حل اسببه ولينظر انفسنا وندمت لغد وانقوا الله ان الله خير بما تاملوا
 ثم قال حل من قبل والافضل جاهدوا نفسا لله يدينهم سبحانه وان الله ذو الجلال
 والافضل اكل وقال وهو اصدق القائلين ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ان الله

لعني عن العالمين وثمن يستغفر الله من كل ما زال به العدم وطفى به
 العلم ويستغفر من اقاويلنا التي لا توافق اعمالنا ويستغفر الله
 كل ما اوقعناه واطهرناه من العلم بدين الله تعالى في كل تقصير فيه
 ويستغفر من كل خلط وعنا الي نقص وزين في كتاب سطروا وخطوا
 نظمنا او علم او فاه ونسبيله ان يحلنا وايام ميسر الاعزان بما علمنا
 عالمين ولو جهده به مريد من واد لا يحمله وبالا علينا وان يحمد في ميزان
 الصالحات اذ اوتى اعمالنا الدنيا جلا ذكرهم في دينهم في الدنيا
 ما ان ناذرهم في شرح كيفية طرقتهم في الآخرة وقد وطينا بالعلم
 وصحت في كل خيرهم مولودنا الى وفضلهم محبوبهم صلى الله عليه وآله
 آله واصحابه اولى الكرم والجود وشرف ذكرهم وسلم تسليم ائيلهم منهاجر
 العايدين بحمد الله حسن توفيقه وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
 وسلم واتخذ الله رسلا الى الامم والاعوان الايام القاطنين اللهم اغفر لئله
 وكما تهم ولقاربه ولئن اطلع عليه وصيد فيه خللا وسد
 واتخذ الله رب العالمين ثم حمد الله وعمره وحسن توفيقه

وازواجه
 وبنوه

ليله الاثنين المبارك الذي هو من شهر ربيع
 على يد العبد الفقير الى مولاه الفقير
 عبد كنانة اخوي بنده
 ابن ابراهيم بن محمد بن
 محمد بن ابراهيم

وكتبه في شهر ربيع الثاني سنة ١٢٠٠
 وكتبه في شهر ربيع الثاني سنة ١٢٠٠
 وكتبه في شهر ربيع الثاني سنة ١٢٠٠

ثانياً: مضمون ومفهوم النص

* مقدمة *

قال الشيخ الإمام عبد الملك بن عبد الله: إملأه الشيخ الموفق حجة الإسلام، أبو محمد بن زين الدين وهو الغزالي رضي الله عنه، وهو آخر كتاب صنفه ولم يتمه منه إلا خواص أصحابه:

الحمد لله الملك الحكيم الجواد الكريم، العزيز الرحيم، الذي فطر السموات والأرض بقدرته، ودبر الأمور في الدارين بحكمته، وما خلق الجن والإنس إلا لعبادته، فالطريق واضح للقاصدين، والدليل لائح للناظرين، ولكن الله يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، وهو أعلم بالمهتدين. والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى آله الأبرار الطيبين أجمعين إلى يوم الدين.

اعلموا إخواني أسعدكم الله وإياي بمرضاته، أن العبادة ثمرة العلم وفائدة العمر، وخاصل العبد، وبضاعة الأولياء، وطريق الأقوياء، وقسمة الآخرة ومقصد ذوي الهمة، وشعار الكرم، وخرقة الرجال، واختيار ذوي الأبصار وهي سبيل السعادة ومنهاج الجنة.

فقال تعالى ﴿أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون﴾. وتأمّلنا طريقها من مبادئها إلى مقاصدها التي هي أمانى مآلِكها، فإذا هي طريقٌ وعَرٌ وصعب، كثيرة القضاء، شديدة المشقة، بعيدة المسافات، عظيمة الآفات، كثيرة العوائق، والموانع وهكذا يجب أن نكون؛ لأنها طريق الجنة، فيصير تصديقاً لما قاله رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ الْجَنَّةَ حُقَّتْ بِالْمَكَارِهِ وَإِنَّ النَّارَ حُقَّتْ بِالشَّهَوَاتِ﴾. والطاعة هي المراد، فلا بد منها، ولا مراد لها، فمن ظفر بها فقد فاز وسعد أبد الأبد، ومن فاتته تلك خسر مع الخاسرين، وهلك مع الهالكين. ❦

مضار هذا الخطب إذن والله معضلاً والخطر عظيماً، ولذلك عزّ
من يقصد هذا الطريق وقل. ومن القاصدين من سيسلكه ثم عزّ مَنْ يصل
إلى المقصود، ويظفر بالمطلوب، وهم الأعزة الذين اصطفاهم الله عز وجل
بمعرفة ومحبته.

ولما وجدنا هذا الطريق بهذه الصفة، نظرنا، فأمعنا النظر في كيفية
قطعها، وما يحتاج إليه العبد من الأهبة والعدة والحيلة، من علم وعمل
عسى أن يقطعها بحسن توفيق الله تعالى في سلامة، ولا ينقطع في عقباتها
المهلكة فيهلك مع الهالكين والعياذ بالله.

وأول ما ينبه العبد للعبادة ويتحرك لسلوك طريقها بتوفيق إلهي
خاص، هو المعنى بقوله «أقمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور
من ربه» فالله قادر، عالماً، حياً متكلاً يأمر وينهي، قادراً على أن يعاقبني
إن عصيته، ويثني إن أطعته، وهو تعالى عالماً بأسراري.

إلا أن أول عقبة تستقبل الإنسان في طريق العبادة، هي عقبة العلم
والمعرفة ليكون من الأمر على بصيرة، فيأخذ في قطعها من غير يد بحسن
النظر في الدلائل، وفور التأمل والتعلم والسؤال من علماء الأخرى، أدلاء
الطريق، سرّج الأمة، وقادة الأئمة.

الضالّح منهم بالتوفيق والأمانة إلى أن يقطعها بتوفيق الله سبحانه،
فيحصل له العلم واليقين بالغيب، وهو أن له إلهاً واحداً لا شريك له، هو
الذي خلقه وأنعم عليه بكل هذه النعم، وأنه كلفه شكره وأمره بخدمته،
وطاعته بظواهره وباطنه، وحذره الكفر وضروب المعاصي، وحكم له
بالتواب الخالد إن أطاعه، والعقاب الخالد إن عصاه، وتولى عنه. فعند ذلك
بعثته هذه المعرفة واليقين بالغيب على التشهير للخدمة، والإقبال على

العبادة لهذا السيد المنعم الذي طلبه فوجده، وعرفه بعد ما جهله، ولكنه لا يدري كيف يعبد، وماذا يلزمه من خدمته بظاهره وباطنه. فبعد حصول هذه المعرفة بالله وما يلزمه من فرائض الشريعة ظاهرا وباطنا، واستكمل العلم والمعرفة بالفرائض، انبعث لياخذ في العبادة، ويشغل بها فطره، فإذا هو صاحب جنایات وذنوب، وهذا حال الأكثر من الناس، فيقول: كيف أقبل على العبادة وأنا مصرّ على المعصية متلطح بها، فيجب أولا أن أتوب إليه ليعفّر لي ذنوبي، ويخلصني من أسرها وأتطهر من أقدارها، فأصلح للخدمة.

وهنا تستقبله العقبة الثانية وهي التوبة، فيحتاج لا محالة إلى قطعها ليصل إلى ما هو المقصود منها، فأخذ في ذلك بإقامة التوبة في شروطها وحققها إلى أن قطعها، فلما حصلت له التوبة الصادقة وفرغ من هذه العقبة، وحسن إلى العبادة لياخذ منها، فنظر فإذا حوله عوائق محدقة كل واحدة منها تعوقه عما قصد من العبادة بضرب من التعويق، فتأمل فإذا هي أربعة : الدنيا، والخلق، والشيطان، والنفس، فاحتاج لا محالة إلى دفع هذه العوائق وإزاحتها، وإلا فلا يتأتى له أمر العبادة.

وهنا تستقبله عقبة ثالثة وهي العوائق، فيحتاج إلى قطعها بأربعة أمور : التجرد عن الدنيا، والتفرد عن الخلق، والمحاربة مع الشيطان، وقمع النفس، فإذا، بأربعة عوارض تعترضه وهي:

أ- الرزق : تطالبه النفس به، وتقول لا بد لي من رزق، وقوام، وقد تجردت عن الدنيا وتفرقت عن الخلق فمن أين يكون قوامي ورقي.

ب- الأخطاء : وهي من كل شيء يخافه الإنسان ويرجوه أو يريده أو يكرهه ولا يدري إصلاحه في ذلك أو فساد، فإن عواقب الأمور مبهمة فينشغل قلبه بها فإنه ربما يقع في فساد أو مهلكة.

ج- الشدائد : وهي المصائب التي تنصب عليه من كل جانب، ولا سيما وقد انتصب لمخالفة الخلق، ومحاربة الشيطان ومضادة النفس، فكم عقبة يتجرعها، وكم شدة تستقبله، وكم من هم وحزن يعترضه.

د- القضاء : فيقضي الله عز وجل بالحل والمر، وترد عليه حالا فحالا، والنفس تسارع إلى السخط وتبادر إلى الفتنة، فأعاقته. واستقبلته هنا عقبة رابعة، وهي العوارض الأربعة، فاحتاج إلى قطعها بأربعة:

أ- التوكل على الله في موضع الرزق.

ب- تفويض الله في موضع الرزق والخطر.

ج- الصبر عند نزول الشدائد.

د- الرضا عند نزول القضاء.

فأخذني قطع هذه العقبة، فلما فرغ من قطعها وعاد إلى قصد العبادة فنظر فإذا النفس فائرة، كسلا لا تنشط ولا تتبع لخير كما يحق وينبغي وإنما ميلها أبدا إلى عتلة وراحة وبطالة، بل إلى شر وفضول وتسلية وعجالة، فيحتاج إلى قطعها لسانق يسوقها إلى الخير والطاعة وينشطها له وزاجر يزجرها عند المعصية، وهما الرجاء والخوف : فالرجاء : هو في عظيم ثواب الله، وحسن ما وعد من أنواع الكرامات.

والخوف : من أليم عقاب الله وصعوبة ما أوعد من أنواع العقوبة والإهانة.

فاستقبلته عقبة خامسة، وهي البواعث فاحتاج إلى قطعها بهذين الذكرين، فأخذ فيها بحسن توفيق الله عز وجل فقطعها، فلما فرغ منها رجع إلى الإقبال على العبادة، فلم ير عائقاً، ولا شاعلاً، ووجد باعثاً، وداعياً، فنشط في العبادة فأقامها وعانقها بتمام الشوق والرغبة، فأدامها، فنظر، فإذا تسبوا لهذه العبادة التي احتمل فيها كل ذلك، آفتان عظيمتان وهما؛ الرياء والعجب فتارة يرائي بطاعته للناس وأخرى يستعظم ذلك ويكرم نفسه، فيعجب بنفسه فتحبط عبادته ويفسدها.

وها هنا تستقبله عقبة سادسة وهي القوادح، فاحتاج إلى قطعها بالإخلاص وذكر المنّة ونحوها ليسلم له ما يعمل من خير. فأخذ في قطعها بالله تعالى، واحتياطاً وتيقظ بحسن عصمة الجبار وتأبيده وحصلت له العبادة كما يحق، ويصبح غريقاً في بحور النعم والمنن، فخاف أن يكون منه إغفال الشكر، فيقع في الكفران فيحيط عن تلك المرتبة الرفيعة وهي مرتبة الخدام الخالصين لله عز وجل.

فاستقبلته هنا عقبة سابعة وهي الحمد والشكر، فأخذ في قطعها بما أمكنه من الحمد والشكر فلما فرغ من هذه العقبة نظر فإذا هو بمقصوده ومبتغاه بين يديه فوق في سهل القضاء، ثم يقع في رياض الرضوان ليصل لمرتبة المقربين وأصحاب الكرامات.

الفصل الأول

عقبة العلم والمعرفة

إن على طالب الخلاص والعبادة أولاً بالعلم فإنه القطب وعليه المراد فالعلم والعبادة جوهرات لأجلهما كان كل ما ترى وتسمع من تصنيف المصنفين، وتعليم المعلمين، ووعظ الواعظين بل لأجلهما أنزلت الكتب وأرسلت الرسل وخلقت السماوات والأرض وما فيهما من الخلق. فأعلم أن العلم شرف الجوهرين وأفضلهما، قال النبي (ﷺ) «إن فضل العالم على العابد كفضلي على أدين رجل من أمتي».

وقال «ألا أدلكم على أشرف أهل الجنة، قالوا بلى يا رسول الله، قال هم علماء أمتي»

ولكن لا بد للعبد من العبادة مع العلم وإلا كان علمه هباءً منثوراً، فإن العلم بمنزلة الشجرة والعبادة بمنزلة ثمرة من ثمراتها، فالشرف للشجرة المثمرة إذ هي الأصل لكن الانتفاع إنما يحصل بثمرتها، فإنه لا بد من الجمع بهما، فالعلم أولى بالتقديس لا محالة من العبادة وذلك لأمرين:

أحدهما : لتحصل لك العبادة، فإنك أولاً تعرف المعبود ثم تعبد. وكيف تعبد من لا تعرفه بأسمائه وصفاته ذاته، وما يجب له وما يستحيل في نعبته، فربما تعتقد في صفاته شيء والعباد بالله تعالى، مما يخالف الحق، فتكون عبادتك هباءً منثوراً فكيف يجب أن تفعل، وكيف تجتنب معاصي لا تعلم أنها معاصي حتى لا توقع نفسك فيها فالعبادة الشرعية، كالطهارة، والصلاة، والصوم وغيرها يجب أن تعلمها بأحكامها وشرائطها حتى تقيمها.

الثاني : أن العلم النافع يثمر خشية الله تعالى ومهابته؛ قال تعالى :
(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) وذلك أن من لم يعرفه حق معرفته لم
يهبه حق مهابته، ولا يعظمه حق تعظيمه وحرمته فصار العلم يثمر الطاعة
كلها ويحجز عن المعصية كلها بتوفيق الله، وليس وراء هذين مقصد للعبد
في عبادة الله سبحانه وتعالى.

أما علم الشريعة فكما فرض فعله وجب عليك معرفته لتؤديه،
كالطهارة والصلاة والصيام، وأما الحج والجهاد والزكاة فيتعين عليك علمها
لتؤديها، وإلا فهذه أحد ما يلزم العبد تحصيله من العلم لا محالة، ويتعين
فرضه بحيث لا بد لك من ذلك. فإن قلت: فهل يفترض على أن أتعلم علم
التوحيد ما انقضي به جميع الملل الكافرة وألزمهم حجة السنة وانقضى به
جميع البدع وألزمهم حجة السنة.

فاعلم أن هذا فرض على الكفاية، وإنما يتعين عليك ما تصحح به
اعتقادك في أول الدين لا غير، وكذلك لا يتعين معرفة فروع علم التوحيد
ودقائقه والإتيان على جميع مسائله.

وإن وردت عليك شبهة في أمور الدين تخاف أن تقدح في اعتقادك،
فيتعين عليك حل تلك الشبهة بما أمكن من الكلام المقنع، وإياك والمجادلة
فإنها داء محض لا نواء له، فاحترز منه جهلك، فإن من ارتداه لم يفلح إلا
أن يتعمده الله تعالى برحمته ولطفه.

ثم اعلم أنه إذا كان في كل قطر داع من دعاة أهل السنة يحل
الشبهة ويرد على أهل البدع، ويشغل بهذا العلم ويصفي قلوب أهل الحق
عن وسواس أهل المبتدعة، فقد سقط الغرض عن سواءه، وكذلك لا يلزمك
معرفة دقائق علم السر وجميع شرح عجائب القلب، وألا ما يفسد عليك

عبادتك، فتجنب معرفته لتتجنبه وما يلزمك فعله، كالإخلاص، والحمد والشكر والتوكل ونحو ذلك، فيلزمك معرفته لتؤديه، وأما سواه فلا. وكذلك لا يلزمك معرفة سائر أنواع الفقه.

فإن قلت: هذا القدر من علم التوحيد هل يحصل بنظر الإنسان من غير معلم؟ فاعلم أن الإسناد فاتح ومسهل فالتحصيل معه أسهل وأروح والله تعالى بفضلہ يمن على من يشاء من عباده فيكون هو معلمهم. ثم اعلم أن عقبة العلم هي عقبة كؤود، ولكن بها نيل المطلوب والمقصود نفعها كثير، وقطعها شديد وخطرها عظيم، كم من عذل عنها فضل، وكم من سكلها فذل، وكم من نائه منها متحيز، وكم من خير منقطع، وكم من سالك قطعها في مدة يسيرة، وآخر متردد فيها سبعين سنة والأمر كله بيد الله عز وجل.

أما نفعه فعلى ما ذكرنا من شدة الحاجة للعبد إليه وبناء أمر العبادة كلها عليه لا سيما علم التوحيد، وعلم السر. فاعلم أنك لو نظرت في دلائل صنع الله، فأمعنت النظر علمت أن لنا إلهاً واحداً قادراً، عالماً، مريداً، سميعاً، حدوث الكلام، والعلم والإرادة، مقدساً عن كل نقص لا يوصف بصفات الحوادث، ولا يجوز عليه ما يجوز على المحدودين. وإذا نظرت إلى معجزات الرسول، وإعلام نبوته تعلمت أنه رسول الله حقاً وأمينه، وما جاء إلا بالحق نذيراً ومبيناً. ثم إذا نظرت إلى أعمال القلب والمواجب والمناهي التي تتأتى في كتاب الله؛ ليحصل لك علمه، ثم تعرف ما تحتاج إلى استعماله كالطهارة، والصلاة، والصوم، ونحوه، فإذا فعلت ذلك، فقد أدبت فرض الله تعالى عليك الذي تعبدت به في باب العلم، وصرت من علماء أمة محمد ﷺ الراسخين في العلم. فإن عملت بعلمك وأقبلت على

عمارة معانك كنت عبداً عالماً عاملاً لله تعالى على بصيرة غير جاهل ولا
مقلد ولا غافل ولك الشرف العظيم ولعلمك القيمة الكثيرة والثواب الجزيل،
وكنيت قد قطعت هذه العقبة وخلفتها ورائك ورضيتك تعالى المسئول أن
يمدك وإيانا بحسن توفيقه وتيسيره إنه أرحم الراحمين ولا حول ولا قوة إلا
بالله العلي العظيم.

الفصل الثاني

عقبة التوبة

عليك يا طالب العبادة بالتوبة وذلك لأمرين؛

أحدهما: ليحصل لك توفيق الطاعة، فإن شؤم الذنوب يورث الحرمان ويعقب الخذلان، وإن قيد الذنوب يمنع المشي إلى طاعة الله عز وجل، والمصارعة في الطاعات، وإن الإصرار على الذنوب يسود القلب، فنجدها في ظلمة وقساوة، ولا خلوص فيها ولا صفاوة، ولا لذة ولا حلاوة. الثاني: إنما نلزمك التوبة؛ لتقبل منك عبادتك، فإن رب الدين لا يقبل منك هدية، وذلك أن التوبة عن المعاصي وإرضاء الخصوم دعامة العبادة التي تقصدها .

فكيف يقبل تبرعك والدين عليك حال لم تقضيه.

فإن قلت: فما معنى التوبة النصوح وحدها، وما يلغي للعبد أن يفعل له للعبد حتى يتخلص من الذنوب كلها، فأقول: أما التوبة، فإنها سعي القلب، وهي عند التحصيل في قول العلماء تبرئة من الذنب. وقال شيخنا أبو بكر النساع رضي الله عنه في حد التوبة، "إنه ترك اختيار ذنب سبق مثله عنه" وهذه منزلة لا صورة تعظيما لله عز وجل، وحذرا من سخطه، ولها أربعة شروط:

(1) ترك اختيار الذنب. (2) التوبة من ذنب قد سبق فعله.

(3) إن الذي سبق يكون مثل ما يترك اختياره في المنزل والدرجة لا في الصورة.

(4) أن يكون اختياره لذلك تعظيماً لله عز وجل، وحنراً من سخطه وأليم عقابه مجرد لا لرغبة دنيوية، أو رهبة من الناس وطلب ثناء، أو ضعف في النفس، أو فقر أو غير ذلك. فهذه شروط التوبة وأركانها فإن حصلت واستكملت، فهي توبة نصوح حقيقية.

مقدمات التوبة:

هناك ثلاثة مقدمات للتوبة: إحداها: ذكر غاية قبح الذنب. الثانية: ذكر شدة عقاب الله تعالى وأليم سخطه وغضبه الذي لا طاقة لك به. والثالثة: ذكر ضعفك وقلة حيلتك في ذلك، فإن من لا يحتمل حرّ الشمس، ولطمة شرطي، وقرض نمله كيف يحتمل حرّ نار جهنم، وضرب مقامع الزبانية، ولسع حيات كأعناق البُخت، وعقارب كالبغال خلّقت من النار في دار الغضب.

فإن قيل: أليس عَذَابُ النَّدَمِ توبة، ولم يذكر ما ذكرتم من شرائطها وشددتم؟ يقال له: اعلم أولاً أن الندم غير مقنن للعبد ألا تری أن الندامة تقع على الذنوب لما ذهب بذلك جاهه بين الناس، وماله في النفقة فيها فإن ذلك لا يكون توبة بلا ريب، فعلمت بذلك أن الخير معنى لم تفهمه من ظاهره.

فالسند لتعظيم الله عز وجل، وخوف عقابه مما يبعث على التوبة النصوح، فإن ذلك من صفات التائبين وحالهم، فإنه إذا ذكر الإنكار الثلاثة التي هي مقدمات التوبة، ندّم وحملته الندامة على ترك اختيار الذنوب، وتبقى ندامته في قلبه في المستقبل تحمله على الابتهال والتضرع، فلما كان في ذلك من أسباب التوبة وصفات التائب سماه باسم التوبة.

والذنوب ثلاثة أقسام، إحداها: ترك واجبات الله عز وجل عليك من صلاة أو صوم أو زكاة أو كفارة أو غيرها، فتقضي ما أمكن منها. والثاني: ذنوب يتأتى وبين العباد، وهذا أشكل وأصعب وهي أقسام قد تكون في المال، وفي النفس، وفي العرض، وفي الحرم، وفي الدين. فما كان في المال فيجب أن ترده عليه إن أمكنك، فإن عجزت عن ذلك لغيبة الرجل أو موته وأمكن التصدق عنه، فافعل، وإن لم يمكن فعليك بتكثير حسناتك والرجوع إلى الله عز وجل بالتضرع والابتهال إليه أن يرضيه عنك يوم القيامة، وكما كان في النفس فتمكنه من القصاص حتى يقضي فيك، أو يجعلك في حل، فإن عجزت فالرجاء إلى الله عز وجل، والابتهال إليه أن يرضيه عنك يوم القيامة.

وأما العرض فإذا أغتبت أو بهته أو شتمته، فحق عليك أن تكذب نفسك بين يدي من فعلت ذلك عنده، وأن تستحل من صاحبه إن أمكنك هذا وإن لم تخش زيادة غيظ، وهيئ فتنة من إظهار ذلك أو تجديده، فإذا خشيت ذلك فالرجوع إلى الله تعالى، ليرضيه عنك والاستغفار الكثير لصاحبه.

وأما الحرم، فإن خنته في أهله وولده ونحوه، فلا وجه للاستحلال والإظهار؛ لأنه يولد فتنة وغيظاً، بل تضرع إلى الله ليرضيه عنك، ويجعل له خيراً في مقابلة ذلك. وأمّا في الدين، فإن كفرته أو بدعته أو ضلّته، وهو أصعب الأمر، فحتاج إلى تكذيب نفسك بين يدي من قلت ذلك له، وأن تستحل صاحبه إن أمكنك، وإلا فالابتهال إلى الله سبحانه وتعالى، والندم على ذلك ليرضيه عنك.

فلا نياس، ولا يمنعك الشيطان من التوبة بسبب ذلك فإنه دالة الخير، أما تسمع قوله ﷺ "خياركم كل مُفْتَن تَوَاب" أي كثير الابتلاء بالذنوب،

كثير التوبة منه والرجوع إلى الله سبحانه بالندامة، والاستغفار. وتذكر قوله
سبحانه "ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً
رحيماً".

الفصل الثالث

عقبة العوائق

إن على طالب العبادة دائماً، دفع العوائق حتى تستقيم عبادته، وهذه العوائق أربعة؛

المبحث الأول

عائق الدنيا

وعلى طالب العبادة دفع الدنيا بالتجرد عنها، والزهد فيها، وإنما لزمك هذا التجرد والزهد لأمرين؛

أحدهما: تستقيم العبادة وتكثر، فإن الرغبة في الدنيا تشغلك، إما ظاهرك أو باطنك، وحديث النفس وكلاهما يمنع عن العبادة، فإن النفس واحدة، والقلب واحد، فإذا اشتغل بشيء انقطع عن ضده، وإن مثل الدنيا والآخرة، كمثل الضارين، إذا أرضيت إحداها أسخط الأخرى، وإنما هما كالمشرق والمغرب، بقدر ما تميل إلى أحدهما أعرضت عن الآخر، فما روي عن ﷺ أنه قال: ﴿من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنيته، فآثروا ما تبقى على ما يفنى﴾ فإن لك إنه إذا اشتغل ظاهرك بالدنيا وباطنك بإرادتها فلا تتلئى لك العبادة بحقها. وأما إذا زهد في الدنيا استنار قلبه بالحكمة وتعاونت أعضاؤه بالعبادة.

الثاني، أن يكثر قيمة عمالك، ويعظم قدره، ولقد قال الرسول (ﷺ) (ركعتان من رجل زاهد قلبه خير وأحب إلى الله جل جلاله من عبادة

المتعبدین إلى آخر الدهر» فالزهد في الدنيا هو خير وأحب إلى الله من
تعلق القلب بالعباد والأشياء.

واعلم أن الزهد في الدنيا يقع في الحلال والحرام؛ فهو في الحرام
فرض وفي الحلال نفل، ثم منزلة هذا الحرام لمستقيمي الطاعة بمنزلة
الميتة المستفزة لا يقدم عليها إلا عند الضرورة بمقدار دفع الضرورة.

وأما الزهد في الحلال، فإنما يكون في منزلة الإبدال، فيكون عندهم
الحلال بمنزلة الميتة لا يتناولون منه إلا قدر لابد منه. والحرام عندهم
بمنزلة النار لا يخطر ببالهم قصد تناولها بحال، وهذا معنى البرودة على
القلب بأن تنقطع همته عنها، ويستكرها جدا فلا يبقى لها في قلبه إرادة ولا
اختيار. فإن قلت: فكيف يمكن أن تصير الدنيا في شهواتها ولذاتها العجيبة
المطلوبة عند الإنسان بمنزلة النار، وبمنزلة الجيفة المستحيلة؟ فاعلم أن من
وفق التوفيق الخاص وعلم آفاتها وقدرها في أصلها، فتهدئ عنده ذلك،
وإنما يتعجب من هذا الراغبون العميان عن عيب الدنيا وآفاتها المغترون
بظاهرها وزينتها.

المبحث الثاني

عائق الخلق

عليك أيها العابد لطاعة الله تعالى بالتفرد عن الخلق، وذلك لأمرين؛ أحدهما: إنهم يشغلونك عن عبادة الله عز وجل على ما حكي بعضهم أنه قال: مررت بجماعة يترامون، وواحد جالس بعيدا عنهم فأردت أن أكلمه، فقال: ذكر الله تعالى أشبهى إليّ، فقلت أنت: وحدك، فقال: معي ربي وملكاى، فقلت من سبق من هؤلاء فقال من غفر الله سبحانه له، فقلت أين الطريق؟ فأشار بيده إلى السماء وقال: أكثر خلقك عندك غافل وقام فتركني. وعنه أيضا فالخلق إذا يشغلونك عن عبادة الله عز وجل بل يمنعونك عنها، واعلم أيها الأخ في الدين أن نبيك محمد (ﷺ) وصف زمان العزلة وبين نعته ونعت أهله وأمر فيه بالتفرد، وكان لا محالة أعلم بالمصالح والأصلح لأنفسنا.

الثاني: إن الناس يفسدون عليك ما يحصل لك من عبادة، إن لم يعصمك الله تعالى، بسبب ما يعترض من قبلهم من دواعي الرياء والتزين. فاعلم أن الزمان قد أصبح في فساد عظيم، وأصبح الناس في ضر كبير، فإنهم يشغلونك عن عبادته عز وجل حتى لا يحصل لك منها شيء، ثم يفسدون عليك، فلزمتك العزلة، والتفرد عن الناس والاستعاذة بالله من شر الزمان وأهله، والله تعالى الحافظ بفضله ورحمته. فإن قيل: فما حكم العزلة والتفرد عن الناس، فبين لنا حال طبقات الخلق فيها؟ فاعلم أن الناس رجلان - رجل لا حاجة بالخلق إليه في علم وبيان حكم، فالأولى بهذا الرجل التفرد عن الناس فلا يخالطهم إلا في جمعة أو في جماعة أو عيد أو

حسج أو مجلس علم بالسنة، أو حاجة إلى معيشة لا بد له من ذلك، وإلا فيواري شخصه ويلزم كنه لا يعرف ولا يعرف. فأما أن أحب هذا الرجل أن ينقطع عن الناس، فلا يخالطهم في أمر من الأمور البتة من دين ودنيا، وجماعة وجمعة وغيرها، لما يري له في ذلك من مصلحته وفراغه، فإنه لا يستقيم له ذلك إلا بأحد أمرين: إما أن يصير إلى موضع لا تلزمه هناك هذه الفروض كرووس الجبال وبطون الأودية، وإما أن يتقن بالحقيقة إن الضرر الذي يلحقه في مخالطتهم بسبب هذه الفروض أعظم من تركها، فحينئذ يكون له عذر في ذلك.

فإن قيل: أليس النبي (ﷺ) يقول: "عليكم بالجماعات فإن يد الله مع الجماعة، وأن الشيطان ذئب الإنسان يأخذ الشاذة والناسية والغاصية، وأن الشيطان مع الغف وهو من الاثنين أبعد".

فاعلم أن وورد أيضاً "ألزم بيتك وابق مكانك وعليك، بالخاصة، ودع عنك أمر العامة، وأمر بالعزلة والتفرد في زمان السوء ولا تناقض" في قوله ﷺ ولا بد بالجمع بين الحديثين بحول الله وقوته.

فأقول: قول الرسول الكريم "عليكم بالجماعة" يحتمل ثلاثة أوجه؟

(1) أنه يعني في الدين والحكم، ألا تجتمع هذه الأمة على ضلالة،

وأما إذا يعتزل عنهم لصلاح في دينه، فليس هذا من ذلك في شيء.

(2) "عليكم بالجماعة" أي لا تنقطعوا عنهم في جمعهم وجماعتهم

ولحواها، فإن فيها قوة الدين، وجمال الإسلام، وغيث الكفار والملحدن، ولا يخلو ذلك من بركات ونظر من الله تعالى بالرحمة. وكذلك نقول، إن حق المنفرد أن يشارك الناس في الجموع والعامة في الخير، وأن يجانبهم في الصحبة والمزاحمة في سائر الأمور لما فيها من ضروب الآفات.

(3) إن ذلك في غير أزمان الفتنة للرجل الضعيف في أمر الدين
والرجل البصير القوي في أمر الله، إذا رأي زمان الفتنة الذي حذر النبي
(ﷺ) منها.

المبحث الثالث

عائق الشيطان

عليك أخي وفقك الله وإيَّانا لطاعته: الابتعاد، وجابهة الشيطان الذي يحاربك في عبادتك لله وحده، وألا تُشرك به شيئاً ويعاديك عند عبادتك لله حق عبادته. وعندما تتجرد لمناقضة الشيطان، ومخاطبته وتجتهد في عبادتك، فإن لك عداوة خاصة من الشيطان، ويكون عليك ومعه أعوان أشدها عليك نفسك، وهواك، وله أسباب ومداخل، وأبواب أنت غافل عنها. فلن قلن: فبأي شيء أخارب الشيطان، وبأي شيء أقهره وأدفعه؟ فاعلم أن لأهل هذه الصناعة في هذه المسألة طريقين:

الأول : ما قال بعضهم: إن التدبير في دفع الشيطان الاستعياذ بالله سبحانه لا غير، فإن الشيطان طلب سلطة الله عليك؛ لمحاربته فإن اشتغلت بمحاربته ومعالجته تعبت وضاع عليك وقتك، فربما يظن بك فيعقرك ويخرجك، فالرجوع إلى رب الكلب ليحرقه عنك أولاً. **الثاني:** ما قاله آخرون: الطريق مجاهدة، والقيام عليه بالرد والدفع والمخالفة.

والذي عندي أن الطريق العدل الجامع في أمره أن يجمع بين الطريقين، فيستعيز بالله تعالى أولاً من شره كما أمرنا، وهو لتأني شره، ثم إن رأيناه، ينقلب علينا علمنا أنه ابتلاء من الله، ليريحنا حق مجاهدتنا وقوتنا في أمره تعالى وصبرنا، كما يسلط علينا الكفار مع قدرته على كفاية أمرهم وشرهم، ليكون لنا حظ من الجهاد والصبر والشهادة.

فإن قلت: كيف تعلم مكائد الشيطان وكيف الطريق إلى معرفة ذلك:
فاعلم أنه له وجهين:

أحدهما: إن له وسواساً بمنزلة السهام، ويرميك بها، وذلك إنما
يَتَّبِعُ بمعرفة الخواطر وأقسامها.

الثاني: له حيل بمنزلة الشباك التي ينصبها الصياد، وذلك يتبين بمعرفة
المكائد، أو صناعاتها ومجاريها. ولقد ذكر علماؤنا رضي الله عنهم أبواباً في
الخواطر.

أولاً: أصل الخواطر: إن الله تعالى بقلب ابن آدم ملكاً يدعو إلى
الخير يقال له الملهم فلدعوته الإلهام، وسلط في مقابلته شيطانا يدعو العبد
إلى الشر يقال له الوسواس ولدعوته وسوسة.

فالملم لا يدعو إلا للخير، أما الوسواس لا يدعو إلا للشر.

أما الخواطر: فهي آثار تحدث في قلب العبد تبعثه على الأفعال،
وتدعوه إليها وتسميت بالخواطر لاضطرابها في خطرات العبد وحدثها
جميعاً في قلبه بالحقيقة من الله. لكنها أربعة أقسام:

* قسم منها ما يحدثه الله عز وجل في القلب ابتداء، فيقال له الخاطر
فقط.

* وقسم يحدثه موافقا لطبع الإنسان، فيقال له هوى النفس.

* وقسم يحدثه عقب دعوة الملهم، فينسب إليه فيقال له الإلهام.

* وقسم يحدثه عقب دعوة الشيطان، فينسب إليه، فيقال له
الوسوسة.

فهذه أربعة أقسام من الخواطر، ثم اعلم بعد هذا التقسيم أن الخاطر
الذي من قبل الله يكون بخير إكراماً، والزاماً للحجة، وقد يكون بشر امتحاناً

وتغليظاً للمحنة. والخاطر الذي يكون من قبل الملمه لا يكون إلا بخير، إذ هو ناصح مرشد لم يرسل إلا لذلك. والخاطر الذي يكون من قبل الشيطان لا يكون إلا بشرٍ إغواء واستزلاً، وربما يكون بالخير مكرًا واستدراجاً. والذي يكون من قبل النفس يكون بالشر وربما لا خير فيه.

وبعد هذه الخواطر لا بد من معرفة ثلاثة فصول لا بد من التنبيه عليها فيها المقصود:

الفصل الأول: قال علماؤنا: إذا أردت أن تعرف خاطر الخير

من خاطر الشر وتفرق بينهما، فزنه بأحد هذه الموازين الثلاثة يتبين لك حاله:

الميزان الأول: أن تعرض الأمر الذي خطر ببالك على الشرع

فإن وافقه فهو خير، وإن كان بالضد برخصة أو بشبهة فهو شر، فإن لم يتبين بهذا الميزان،

فالميزان الثاني: عرضه على الاقتداء، فإن كان في فعله اقتداء

بالصالحين، فهو خير، وإن كان بالضد في الاقتداء بالصالحين فهو شر، فإن لم يتبين بهذا الميزان،

فالميزان الثالث: وهو عرضه على الاقتداء على النفس

والهوى، وانظر إذا كان ما تنفر عنه النفس نفرة طبع لا نفرة خشية وترهيب، فهو خير وإن كانت تميل إليه رجاء إلى الله وترغيب فهو شر.

الفصل الثاني: إذا أردت أن تفرق بين الخير والشر، أو بين

خاطر شر قد يكون من قبل الشيطان وبين خاطر شر يكون من قبل هوى النفس، أو من الله تعالى ابتداء، فانظر فيه إلى ثلاثة أوجه:

الأول: إن وجدته مصمماً راتباً على حالة واحدة، فهو من الله عز وجل، أو من هوى النفس، وإن وجدته متردداً مضطرباً، فاعلم أنه من الشيطان. وكان بعض العارفين، يقول: هوى النفس مثل النمر، إذا حارب لا ينصرف إلا بقمع بالغ، وقهر ظاهر.

الثاني: إن وجدته عقيب ذنب أحدثه، فمن الله تعالى عقوبة لشؤم ذلك الذنب، وإن كان هذا الخاطر مبتدئاً لا يعقب ذنب كان منك، فاعلم أنه من قبل الشيطان في الأكثر؛ لأنه يبتدأ بدعوة الشر، ويطلب بكل حال الإغواء.

الثالث: إن وجدته لا يضعف ولا يقل بذكر الله تعالى فهو من الشيطان.

الفصل الثالث: إذا أُرنتَ أن تُفرّق بين خاطر خير قد يكون من الله أو من الملك، فانظر في ذلك من ثلاثة أوجه:

الأول: إن كان قوياً مصمماً، فهو من الله سبحانه وتعالى، وإن كان متردداً فهو من الملك إذ هو بمنزلة ناصح يدخل معك من كل وجه، ويعرض عليك كل نصيح رجاء إجابتك، ورغبتك في الخير.

الثاني: إن كان عقيب اجتهد منك أو طاعة فهو من الله.

الثالث: إن كان في الأصول والأعمال الظاهرة، فهو من الملك في الأكثر إذ الملك لا سبيل له لمعرفة باطن العبد.

أصل الحيل والمخادعات: إن مكائد الشيطان مع آدم في الطاعات سبعة أوجه:

(1) أن ينهي عنها، فإن عصمه الله تعالى ورده قال: فأني محتاج إلى ذلك العمل جداً، إذ لا بد من التزويد في الدنيا للأخرة التي لا انقضاء لها.

(2) الأمر بالتسويق، فإن عصمه الله تعالى ورده قال: ليس أجلي بيدي فأني إن أسوفت عمل اليوم إلى غد فهل الغد ملك لأحد؟

(3) يأمره بالعجلة، فيقول له عَجَلْ عَجَلْ لتفرغ لكذا وكذا، فإن عصمه الله تعالى ورده، قال: قليل العمل مع التمام خير من كثير مع النقصان.

(4) فيأمره بإتمام العمل مراتباً للناس، فإن عصمة الله تعالى ورده، قال: ما الذي أعمل بمرائيات الناس، أفلا نكتفي برؤية الله تعالى.

(5) ثم يريد أن يوقعه في العُجب، فيقول ما أعظمك، وأيقظك، فإن عصمه الله تعالى ورده، قال المنّة لله تعالى في ذلك دوني، وهو الذي خصني بتوقيفه وجعل للعمل قيمة بفضله، ولولا فضله فما كان هذا العمل من قيمة.

(6) فيأتيه بقوله: اجتهد أنت في السرّ فإن الله تعالى سيظهره عليك ويلبس كل عامل عمله وأراد بذلك ضرباً من الرياء. فإن عصمه الله ورده، قال: يا ملعون أنا عبد الله وهو سيدي وهو يُظهر إن شاء ويخفي إن شاء.

(7) فيقول لا حاجة لك إلى هذا العمل؛ لأنك إن خُلقتَ سعيداً لم يعزك ترك العمل، وإن خُلقتَ شقيّاً لم ينفعك فعلك. فإن عصمه الله تعالى ورده، قال: إنما أنا عبد الله وعلى العبد امتثال الأمر لعبوديته والرّب أعلم بربوبيته يحكم ما يشاء ويفعل ما يشاء؛ ولأنه ينفعني العمل كيف ما كنت لأنني إن كنت سعيداً احتجت إليه لزيادة الثواب، وإن كنت شقيّاً، فأنا محتاج

إليه كيلاً أُمّ على أن الله تعالى لا يعاقبني على الطاعة بكل حال، ولا
تُضرني على أني أن أدخل النار وأنا مطيع أحب إلى من أدخل النار وأنا
عاص. فكيف ووعد الله حق. وقوله صدق، وقد وعد الله تعالى على
الطاعة بالثواب، فمن لقي الله تعالى على الإيمان والطاعة لن يدخل النار
البُتة ودخل الجنة، لا لاستحقاقه بعمله الجنة ولكن لوعده الصادق تعالى
ولهذا المعنى أخبر الله تعالى عن السعداء إذ قال:
"الحمد لله الذي صَنَعْنَا وَعَدَهُ".

المبحث الرابع

عائق النفس

ثم عليك عصمك الله وإيانا بالحنز من هذه النفس الأمارة بالسوء فإنها آخر الأعداء، ويلاؤها أصعب البلاء، وعلاجها أعسر الأشياء، ودأؤها أعضل الداء، ودواؤها أشكل الدواء، وإنما ذلك لأمرين:

أحدها: إنها عدو داخل، فإذا استحسن الإنسان من كل قبيح ولا يكاد يطلع على عيب لها اشددت من عداوتها وأضرارها، فما أوشك ما توقعه في فضيحة وهلاك، وهو لا يشعر، إلا أن يحفظه الله تعالى بفضله، ويعينه عليها برحمته.

الثاني: إنها أصل كل قبيحة وفضيحة، وخزي وهلاك وذنوب وآفة وقع فيها خلق الله تعالى من أول الخلق إلى يوم القيامة إما وحدها، أو بمعونته ومساعدة إبليس لعنة الله عليه إلى يوم الدين.

فاعلم إنك لا بد من أن تنلها وتكسر هواها بثلاثة أشياء:

(1) منع الشهوات. (2) حمل أثقال العبادات. (3) الاستعاذة بالله.

فالنفس أمارة بالسوء إلا ما رحم ربي، فإذا واطبت على هذه الأمور الثلاثة انقادت النفس الجموح بإذن الله.

فيادر إلى أن تملكها، أو تلجمها وتأمين من شرّها. فإن قلت: فبين لنا ما هي التقوى حتى نعلمها؟

فاعلم أولاً أن التقوى كنز عزيز، فلئن ظفرت به نجوت وتخلصت، فكم تجد فيه من جوهر شريف وخير كثير، ورزق كريم، وفوز كبير، وغنم جسيم، وملك عظيم فكان خير الدنيا والآخرة.

وتَحَت هذه الخِلة التي هي التقوى جُمعت وخُمِلت كل نعم الخالق وتأمل في القرآن من نكرها، كم علق بها من خير، وكم وعد عليها من ثواب، وكم أضاف إليها من سعادة، وأنا أعد لك من جملتها اثنتا عشرة خصلة:

(1) الثناء كما في قوله ﴿وإنَّ تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾.

(2) الحفظ والحراسة من الأعداء ﴿وإنَّ تصبروا، وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا﴾.

(3) التأييد والنصر ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾.

(4) النجاة من الشدائد والرزق من الحلال ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾.

(5) إصلاح العمل ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله، وقولوا قولا سديداً يصلح لكم أعمالكم﴾.

(6) غفران الذنوب ﴿ويغفر لكم ذنوبكم﴾.

(7) محبة الله ﴿إن الله يحب المتقين﴾.

(8) القبول ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾.

(9) الإكرام والإعزاز ﴿إنا أكرمكم عند الله اتقاكم﴾.

(10) البشارة عند الموت ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾.

(11) النجاة من النار ﴿وينجي الله الذين اتقوا﴾.

(12) الخلود في الجنة ﴿أعدت للمتقين﴾.

فهذا كل خير وسعاة في الدارين تحت هذه التقوى، فلا تنسى نصيبك أيها الرجل منها. ثم الذي يختص بهذا الشأن من أمر العبادة ثلاثة أصول:

الأول: التوفيق والتأييد. الثاني: إصلاح العمل وإتمام التقصير. الثالث: قبول العمل للمتقين.

واعلم أن التقوى في القرآن تطلق على ثلاثة أشياء: أحدها: بمعنى الخشية والهيبة «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته».

الثاني: بمعنى الطاعة.

الثالث: بمعنى تبرئة القلب من الذنوب، وهذه هي الحقيقة في التقوى دون الأولين ألا تری أن الله تعالى يقول «ومن يطع الله ورسوله ويخشى الله ويتقه فأولئك هم الفائزون».

والتقوى ثلاثة منازل، تقوى عند الشرك، وتقوى عند البدعة، وتقوى عن المعاصي الفرعية ولقد ذكر سبحانه وتعالى في آية واحدة وهي قوله تعالى؛ «ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعلّموا الصالحات ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين».

وحد التقوى للجامع تبرئة القلب عن شر ألم بك، ليسبق عنك مثله بقوة العزم عن تركه حتى يصير ذلك وقاية بينك وبين كل شر، ثم الشرور ضربان:

• شر أصلي: وهو ما ينهى الله عنه كالمعاصي المحضة.

* شر غير أصلي: وهو ما ينهي الله عنه تأديبياً، وهو حصول الحلال كالمباحات المأخوذة بالشهوات، فالأولى: تقوى خوض يلزمك بتركها عذاب النار. والثاني: تقوى خير وأنب يلزمك بتركها الحبس والحساب والسموم. فمن أتى بالأولى فهو في الدرجة الثانية، والألنى من التقوى، وهو منزلة مستقيمي الطاعات. ومن أتى بالثانية، فهو من الدرجة العليا من التقوى وذلك منزلة مستقيمي ترك المباح. وإذا جمع بينهما باجتناب المعاصي، فقد استكمل معنى التقوى.

ونقول إنه من أراد أن يتقي الله، فيراعي الأعضاء الخمسة، فإنهم الأصول وهي العين، والأذن، واللسان، والقلب، والبطن.

الفصل الأول: العين:

عليك وفقك الله، وإيانا بحفظ العين، فإنها سبب كل فتنة وآفة، وانكر في أمرها ثلاثة أصول:

أحدها: ما قال الله تعالى ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ بَغَضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ فإذا تأملت هذه الآية فإذا فيها مع قصرها ثلاث معاني عزيزة: تأديب، وتنبية، وتهديد. الثاني: ما روي عن رسول الله ﷺ إن النظر إلى محاسن المرأة سَهَمٌ مِنْ سَهَامِ إِبْلِيسَ فَمَنْ تَرَكَهَا أَذَاقَهُ اللَّهُ طَعْمَ عِبَادَةِ تَسْرِهِ، وَإِنْ وَجَدَ إِنْ حَلَاوَةَ الْعِبَادَةِ وَلَذَّةَ الْمَنَاجَاةِ مِنَ الْعَابِدِينَ بِمَكَانٍ. وهذا شيء مجرب عمله، وتحققه من عمل به إذا امتنع عن النظر إلى ما لا يعنيه يجد لذة العبادة، وحلاوتها، والقلب صفوة لم يجدها من قبل.

الثالث: أن تنظر إلى كل عضو من أعضائك، لماذا يصلح ماذا على فعله وحسب تلك تصونه.

فهذه الأصول الثلاثة إذا أحسنت التأمل فيها، كفتك المؤنة وبالله التوفيق.

الفصل الثاني: الأذن:

فعليك بصيانة سمعك عن الفضول، وذلك لأمرين؛
أحدهما: إن المستمع شريك المتكلم.

الثاني: إن ذلك يهيج الخواطر والوسواس في القلب، ثم من ذلك تبدو الأشغال في البدن، فالكلام الذي يقع في قلب الإنسان وسمعه بمنزلة الطعام الذي يقع في جوفه، فمنه الضار، ومنه النافع، ومنه الغذاء ومنه السم، بل إن بقاء الكلام وتجرعه أكثر وأبلغ، فالطعام يزول بزواله عن المعدة، وأما الكلام الذي وقع في قلب الإنسان، ربما يبقى معه جميع عمره ولا ينساه، فإن كان شيء رديئاً فلا يزال يتبعه ويعنيه، وترد بسببه خواطر في القلب ووسواس، ويحتاج إلى أن يعرض عنها ويعدل قلبه عن تذكرها ويستعين بالله من شرها.

الفصل الثالث: اللسان:

ثم عليك بحفظ لسانك، وضبطه وقيدته، فإنه أشد الأعضاء جماعاً، وطغياناً وأكثرها فساداً وعدواناً، فعن قيس بن عبيد قال: "إني وجدت نفسي تحتل الصوم في الحر الشديد بالبصرة، ولا تحتل ترك كلمة لا تعنيها" فعليك إذن بالتحفظ جداً أو بذل المجهود، وتذكر خمسة أصول:
الأول: إن نطق اللسان يؤثر في أعضاء الإنسان بالتوقيف والخذلان.
الثاني: حفظ وقتك، فإن أكثر ما يتكلم به الإنسان من غير ذكر لله تعالى يكون فيه ضياع الوقت.

الثالث: حفظ الأعمال الصالحة، فإن لم يعف لسانه، وأكثر الكلام يقع لا محالة في غيبة الناس.

الرابع: السلامة من آفات الدنيا على ما قال سفيان الثوري: لا تتكلم بلسانك ما تكسر به أسنانك. وقال الآخر: لا تبسط لسانك فيفسد عليك شأنك.

الخامس: ذكر آفات الآخرة وعاقبتها، فهو لا يخل إما أن يقول قولاً محظوراً حراماً، أو قولاً مباحاً من فضول لا يعينك.

الفصل الرابع: القلب:

ثم عليك بحفظ القلب وإصلاحه وحسن النظر في ذلك وبذل المجهود، فإنه أعظم هذه الأعضاء خطراً وأكثرها أثراً وأشدّها أمراً وأشقّها إصلاحاً، وأذكر في ذلك خمسة أصول مقنعة:

الأول: قوله تعالى ﴿إِن يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ...﴾ وقوله ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فكفى باطلاع العليم الخبير تحذيراً أو تهديداً للخواص من العباد؛ لأن المعاملة مع علام الغيوب خطيرة، فانظر ماذا تعلم من قلبك.

الثاني: قول الرسول (ﷺ) ﴿إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَجْسَامِكُمْ، وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ﴾.

فالقلب إذن موضع نظر رب العالمين، فإما من يهتم بوجهه الذي هو منظر الخلق، فيفسله، وينظفه من الأقدار والأدناس، ويزينه بما أمكنه لنلا ليطلع عليه مخلوق على عيب، ولا يهتم بقلبه الذي هو مع نظر رب العالمين، فيظهره ويزينه كيلا يطلع رب العالمين على دنس وشين، وأفة

وعيب بل يهمله بفضائح الأقدار وقبائح لو اطلع الخلق على واحد منها لهجروه.

الثالث: إن القلب ملك مطاع والأعضاء كلها له تبع، فإذا صلح المتبوع صلح المتبوع، وإذا استقام الملك استقامت الرعية. ويقول الرسول (ﷺ)، «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله ألا وهي القلب».

الرابع: إن القلب خزانة كل جوهر لعقد نفيس وكل معنى خطير أولها العقل وأجلها لمعرفة الله عز وجل وهي سبب معادة الدارين.

الخامس: إن أحوال القلب خمسة ليست لغيره.

أحدها: إن العدو قاصد إليه مقبل عليه عليه ملازم له، فإن الشيطان جائم على قلب ابن آدم، فهو منزلة الإيهام والوسوسة بقرعانه أبداً بالدعوتين الملك والشيطان.

الثاني: إن الشغل له أكبر، فإن العقل والهوى كلاهما فيه، فهو معترك للعسكريين الهوى وجنوده، والعقل وجنوده، تحاربهما ولقائهما وتناقضهما.

الثالث: العوارض له أكثر، فإن الخواطر كالسهم، ولا تزال تقع فيه كالمطر ينزل ليلاً ونهاراً، لا ينقطع، ولا أنت تقدر على منعها، فتمتنع. وليس بمنزلة العين التي بين جفنين تغمض، وتستريح أو تكون في موضع خالي، أو ليل مظلم متكفي رؤيتها، أو اللسان الذي هو وراء الشفتين، وأنت القادر على منعه وتسكينه، بل القلب عرض للخواطر، لا يقدر على منعها والتحفظ عنها بحال ولا هي تنقطع منك بوقت.

الرابع: إن علاجه عليك عسير، إذ لا تكاد تشعر حتى يدب فيه آفة وتحدث له حالة فتحتاج إلى أن تبحث عن ذلك أتم البحث بطول الجهد ودقيق النظر وكثرة الرياضة.

الخامس: إن الآفات إليه أسرع، فهو للانقلاب أقرب من القدر في غليانها.

أما عن الأصول التي لا بد من ذكرها في علاج القلب، والحاجة إليها ماسة، وما غنية عنها البتة في شأن العبادة، فوجدت في أربعة أمور، وهي مداحض العابدين وآفات المجتهدين، وفتن القلب وبلبات النفوس، وأربعة في مقابلتها فيها قوام العباد وانتظام العبادة والصلاح للقلوب؛ فالآفات الأربعة: الأمل، والحسد، والاستعجال، والكبر.

(1) **الأمل:** هو العائق عن كل خير وطاعة، والجالب لكل شر وفتنة وإنه الداء العضال الذي يوقع في أنواع الفتن، وأعلم أنك إذا طال أمّك حاج لك منه أربعة:

أ- ترك الطاعة والكمل فيها، فنقول سوف أفعل والأيام بين يدي، ولا يفوتني ذلك.

ب- ترك التوبة وتسويفها، فنقول سوف أتوب وفي الأيام سعة وأنا شاب وسني قليل والتوبة بين يدي.

ج- الحرص على الجمع والاشتغال بالدنيا عن الآخرة، فنقول أخاف الفقر في الكبر وربما أضعف عن الاكتساب، ولا بد لي من شيء فاضل أدخره لمرض أو هرَم.

د- القسوة في القلب والنسيان للآخرة، لأنك إذا أملت العش الطويل لا تنك الموت والقبر.

(2) الحسد: وهو المفسد للطاعات الباعث على الخطيئات، وإنه

السداء الكبير الذي يبئلي به الكثير من القراء، والعلماء فضلا عن العامة والجهال حتى أهلكهم وأوردتهم النار. وأعلم أن الحسد يهيج خمسة أشياء:

أ- إفساد الطاعة. ب- فعل المعاصي والشرور.

ج- للتعب ولهم من غير فائدة. د- عمي القلب حتى لا يكاد يفهم أحكام

الله.

هـ- الحرمان والخذلان فلا تكاد تظفر بمراد وتنتصر على عو.

فالحسد، هو إرادة زوال نعم الله تعالى عن أخيك المسلم مما له فيه صلاح فإن لم ترد زوالها عنه وكنت تريد لنفسك مثلها فهو غبطة.

(3) الاستعجال: وهو الخصلة للمقاصد الموقعة في المعاصي،

وإن فيها تبدو آفات وهي:

أ- أن يقصد العابد منزلة في الخير والاستقامة، ويجتهد، فربما يستعجل في نيلها وليس ذلك بوقتها، فأما أن يفتر ويبئس ويترك الاجتهاد، فيحرم تلك المنزلة، وإما أن يغلو في الجهد، وإتعب النفس، فينقطع عن تلك المنزلة فهو بين إفراط وتفریط، وكلاهما نتيجة الاستعجال.

ب- أن تكون للعابد حاجة فيدعو الله تعالى، ويكثر الدعاء، فربما يستعجل الإجابة قبل وقتها فلا يجدها، فيفتر ويسأم فيترك العبادة.

فالاستعجال هو المعين الراتب في القلب الباحث عن الإقدام على الأمر بأول خاطر دون التوفيق فيه فهو من الندامة والملامة.

(4) الكبر: وهو خاطر في رفع النفس واستعظامها، والتكبر

اتباعه. والتواضع خاطر في النفس يحتقرها والتواضع اتباعه. ولكل واحد

منها خاصي وعامي، فالتواضع العامي هو الاكتفاء بالدون من الملبس والمأكّل والمركب، والتكبر في مقابلة الترفع عن ذلك. والتواضع الخاصي هو تذليل النفس على قول الحق، في مقابلة الترفع عن ذلك وهو معصية كبيرة، وخطيئة عظيمة. والتواضع العامي أن تذكر مبدأك ومنتهاك وأنت عليه في الحال من ضروب الآفات الأقدار.

فعلبك في طريقك للعبادة مضادة تلك الآفات، وأن تمحو طول الأمل بقصر الأمل، والحسد بالشكر لله علي نعمه عليك، والاستعجال بالتأني والثقة في قدرة الله تعالى، والكبر بالتواضع.

الفصل الخامس: البطن:

عليك حفظك الله بحفظ البطن، وإصلاحه فإنه أشق الأعضاء إصلاحاً على المجتهد، وأكثرها شغلاً وأعظمها أثراً وضراً، كأنه المنبع والمعدن، ومنه تهيج الأمور في الأعضاء من قوة وضعف ونحوه، فعليك إذن بصيانته عن الحرام والشبهة أولاً، ثم عن فضول الحلال ثانياً إن كانت لك همة في عبادة الله تعالى، فأما الحرام والشبهة فإنما يلزمك البحث عنه لثلاثة أمور:

أولها: جزءاً من نار جهنم. قال الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالِ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾.
الثاني: إذا أكل الحرام والشبهة، لا يوقف للعبادة، إذ لا يصلح لخدمة الله تعالى إلا كل طاهر مطهر.

الثالث: إن أكل الحرام والشبهة محروم، وإن أنفق له فعل الخير، فهو مردود عليه غير مقبول منه، فإذن لا يكون له من ذلك إلا العناء والكدر وشغل الوقت.

أما الفضول في الحلال فإنه آفة العبادة، وبلية أهل الاجتهاد، وإنني تأملت فوجدت فيه عشرة آفات هي أصول في هذا الشأن:

(1) في كثرة الأكل قسوة القلب وذهاب نوره.
(2) في كثرة الأكل فتنة الأعضاء وهيجانها وانبعاثها للفضول والفساد.

(3) في كثرة الأكل قلة الفهم والعلم، فإن البطنة تذهب بالفطنة.

(4) والرابعة، إن في كثرة الأكل قلة العبادة، فإن الإنسان إذا أكثر الأكل تقل بدنه وغلبته عيناه، وفترت أعضاؤه، فلا يجئ منه شيء، وإذا اجتهد إلى العبادة فلا حلاوة فيها إلا النوم.

(5) إن في كثرة الأكل فقد حلاوة العبادة.

(6) إن فيه خطر الوقوع في الشبهة والحرام؛ لأن الحلال لا يأتيك إلا قوتاً والحرام يأتيك جزافاً.

(7) إن فيه لشغل للقلب، والبدن بتحصيله أولاً وبتهيئته ثانياً، ثم بإبطاله ثالثاً، ثم بإقراعه والتخلص عنه رابعاً، ثم بالسلامة منه خامساً، بان يبدو منه آفة في البدن، بل آفات وعلل.

(8) من أمور الآخرة شدة سكرات الموت، فلقد روي في الأخبار إن شدة سكرات الموت على قدر لذة الحياة، فمن أكثر من هذه، أكثر له في تلك.

(9) نقصان الثواب في العقبي، فإنه بقدر ما تأخذ من لذات الدنيا ينقص لك من لذات الآخرة.

(10) الحبس والحساب واللوم والتعيير في ترك الذنب في أخذ الفضول، وطلب الشهوات فإن الدنيا حلالها حساب، وحرامها عقاب، وزينتها إلى تباب، فهذه جملة العشرة وفي أحدها كفاية لمن نظر لنفسه، فعليك أيها المجتهد بالاحتياط البالغ في القوت كيلا تقع في حرام وشبهة، فيلزمك العذاب ثم بالاختصار من الحلال على ما يكون عده على عبادة الله سبحانه، فلا تقع في شر فتبقى في الحبس والحساب.

أما الفضول الذي يلزم منه الحساب والحبس وما المقدار الذي يلزم إذا أخذه العبد يكون أدباً، ولا يكون فضولاً، ولا عليه فيه حبس ولا حساب يقال له أحوال المباح وهو في الجملة ثلاثة أقسام:

القسم الأول : أن يأخذه العبد مفخراً، مكاثراً، مباهاياً، مرانياً، فيكون الأخذ منه فعلاً منكراً، يستوجب على ظاهر فعله الحبس والحساب واللوم والتعيير، وهو منكر وشر ويستوجب على باطن فعله، وهو التكاثر والتفاخر، عذاب النار.

القسم الثاني: أن يأخذ الحلال لشهوة نفسه لا غير فذلك منه شر يستوجب عليه الحبس والحساب، لقوله تعالى ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾.

القسم الثالث : أن يأخذ من الحلال في حال العذر قدر ما يستعين به على عبادة الله، ويقتصر على ذلك فذلك منه خير وحسنة وأدب لا حساب عليه ولا عذاب، بل يستوجب عليه الأجر والمنحة.

فإن قيل: فما شرطه المباح حتى يصير خيراً وحسنة كما ذكرتم؟
فأعلم أنه يحتاج كونه خيراً في الأصل إلى شرطين؛ أحدهما :
الحلال، والثاني : القصد في الحلال يجب أن يكون في حال عذر، وهو بحيث أن لم يأخذ ذلك المباح فينقطع بسببه عن فرض أو منة أو نفل، يكون ذلك أفض من ترك المباح، فإن ترك مباح الدنيا فضيلة، فإذا كان الحال كذلك، فهو حال العذر.

أما القصد، فهو أن تقصد به للذة والاستعانة على عبادة الله تعالى، وهو أن يذكر بقلبه أنه لولا ما فيه من التوصل إلى عبادة الله تعالى لما أخذت ذلك. فهذا ذكر الحجة في الحال العذر، ويصير ذلك الأخذ من الدنيا

الحلال خيرا أو حسنة وأدبا. وأما لو كان حاله حال العذر ولا يكون هذا القصد والذكر أو يكون له هذا الذكر ولا يكون في حال العذر، فلا يعد ذلك الأخذ من جملة الخيرات. ثم الاستقامة على حفظ هذا الأدب، يحتاج إلى بصيرة وقصد يحمل بأنه لا يأخذ الدنيا بحال إلا للعدة على العبادة حتى أنه إن سهي عن ذكر الحجة في حال أجزاء ذلك القصد عن تجريد ذكر الحجة، فافهم ذلك راشدا.

فإن قيل: أخذ الدنيا الحلال الشهوة، هل يكون ذلك معصية، وهل يلزم عليه عذاب؟ وهل الأخذ بالعذر فرض أم؟ فأعلم أن ذلك فضيلة ونسمة خيرا، وحسنة، والأمر به أمر تأديب والأخذ بالشهوة شر وسية، والنهي عنه نهى وزجر، وليس ذلك بمعصية، ولا يكون عليه عذاب، وإنما عليه الحبس والحساب واللوم والتعيير. فإن قلت: فما هذا الحبس والحساب الذي يلزم العبد، فأعلم أن الحساب أن تُسأل يوم القيامة عن ما إذا اكتسبت، وفيما أنفقت، وماذا أردت بذلك، والحبس حبس عن الجنة مده الحساب بذلك في عروضات القيامة بين أهوالها ومخاوفها عريانا عطشانا وكفى بذلك بلية. فهذه هي الأعضاء الأربعة التي هي الأصول، الأول: العين، وحسبك فيها أن مدادا من الدين والدنيا على القلب، وإن خطر القلب وشغله وفساده في الأكثر من العين، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام، "من لم يملك يمينه فليس للقلب عنده قيمة". والثاني: اللسان وحسبك فيه ربك وغنيمتك وثمرة تبك، واجتهادك كله العبادة والطاعة، فإن خطر العبادة واحتياطها وفسادها في الأكثر من قبل اللسان، والتصنع والتزيين والغيبة ونحوها يتلف عليك بلحظة واحدة ما تعبت فيه سنة بل خمسة عشر، ولذلك قيل: ما شيء أخط بطول السجن من اللسان. والثالث: البطن وحسبك أن مقصودك العبادة

وإن الطعام والشراب بذر العمل، وداؤه منه يبدو وينبت، وإذا جفت البذر لا يطيب الزرع، بل فيه خطران يفسد عليك أرضك فلا تصلح أبداً.

ومن ذلك ما بلغني عن معروف الكرخي أنه قال: "إذا صمت فانظر على أي شيء تقرر، وعند من تقرر، وطعام من تأكل، فكم من يأكل أكله فيقلب قلبه عما كان عليه ولا يعود إلى حاله أبداً، وكم من آكل حرمت عليه قيام ليلة، وكم ومن نظرة منعت قراءة سورة، وإن العبد ليأكل الأكلة، فيحرم بها قيام سنة".

فعليك أيها الرجل بالنظر الدقيق، والاحتياط البالغ الشديد في قوتك، ثم عليك بالأدب فيه وإلا كنت حمالاً للطعام، مطيعاً للأيام إذ قد علمنا يقينا بل رأينا عياناً أن العبادة لا يجيئ منها بشيء إذا امتلأ البطن، وإن أكرهت النفس على ذلك وجاهدت بضروب الحيل، فلا يكون لتلك العبادة لذة، ولا حلاوة، ولذلك قيل: لا تطمع بحلاوة في العبادة مع كثرة الأكل.

وأما القلب، فحسبك أنه الأصل، إن أفسدته فسد الكل، وإن أصلحته صلح الكل، إذ هو الشجرة وسائر الأعضاء فروع، فإذا صلح الملك صلحت الرعية، وإذا فسد فسدت.

فإذن صلاح العين واللسان والبطن وغيره دليلاً على صلاح القلب وعمرانه، وإذا رأيت فيهم خللاً وفساداً، فاعلم أن ذلك من خلل في القلب وفساد وقع، بل الفساد فيه أكثر، فاصرف عنايتك إليه، فإذا أصلحته يصلح الكل.

ثم عليك بالاهتمام بالخصال الأربع التي ذكرناها من الأجل، والعجلة، الحسد، والكبر، وإنما خصصنا هذه الأربع من بين سائر الخصال، إذ هي تقرر سائر الناس عموماً والغرار خصوصاً، فتكون أفيح

وأشنع ترى الرجل القارئ يطول الأمل وبعده فيه خير فيوقعه في الكسل والتواني في العمل، وتراه يستعجل في تحصيل منازل الخير، فينقطع عنها أو في إجابة دعاء صالح، فيحرم ذلك أو في الدعاء على أحد بسوء، فيندم على ذلك وتراه يحسد نظراءه على ما أتاهاهم الله من فضله حتى ربما يبلغ ذلك منه مبلغا يحمله على قبائح وفضائح لا يقدم عليها فاسق ولا فاجر، أما الكبر فهو آفة إذا وقعت فيه، لو وقعت في الكفر والطغيان، فعليك بالتواضع والزهد وذكر نعمة الله عليك دائما.

الفصل الرابع

عقبة العوارض

عليك يا طالب العبادة وفقك الله بكفاية للعوارض الشاغلة عن العبادة لله تعالى، وسد سبيلها عليك لئلا تشغلك عن مقصودك، وهي أربعة عوارض الرزق، والأخطاء، والشدائد، والقضاء.

المبحث الأول : الرزق :

إن الرزق ومطالبة النفس به لمن عوانق العباد، وإنما كفايته بالتوكل على الله سبحانه وتعالى في موضع الرزق والحاجة بكل حال، وذلك للتفرغ للعبادة، ويتمشى لك من الخير حق. فإن لم تكن متوكلاً، فلا بد من اشتغاله عن عبادة الله بسبب الحاجة والرزق والمصلحة، إما ظاهراً وإما باطناً، إما بطلب وكسب بالبدن كعمالة الراغبين، وإما بنكر وإرادة وسوسة بالقلب كالمجتهدين المعانين.

والعبادة تحتاج إلى فراغ القلب والبدن، ليحصل حقها والفراغة لا تكون إلا للمتوكلين.

أما المعلق الضعيف أبداً يكون بين تودد وقصور، كالحمار في معلقه. وعن سليمان الخواص: لو أن رجلاً توكل على الله بصدق النية، لاحتاج إليه الأمر، وكيف يحتاج هو ومولاه الغني الحميد. وعن إبراهيم الخواص قال: لقيت غلاماً في البرية، كأنه سبيكة فضة قلت: إلى أين يا غلام، فقال: إلى مكة، فقلت بلا زاد ولا راحلة، فقال: يا ضعيف اليقين، الذي يقدر على حفظ السماوات والأرض يقدر أن يوصلني إلى مكة بلا زاد

ولا راحلة. فلما دخلت مكة، فإذا هو يطوف، فلما رأيته قال لي: يا شيخ أنت بعد على ذلك الضعيف من اليقين.

فإذا قلت: أخبرنا ما حقيقة التوكّل وحكمه وما يلزم العبد منه في أمر الرزق؟ فاعلم إنما يتبين لك بأربعة فصول: بيان نقطة التوكّل وموضعه وحده وحصله. وأما النقطة، فإنما هي توكّل من التغفل من الوكالة، فالتوكّل على أحد هو أن يتخذ بمنزلة الوكيل القائم بأمره الضامن لإصلاحه الكافي له من غير تكلف واهتمام، فهذه جملة. وأما الموضع، فاعلم أن التوكّل اسم مطلق في ثلاثة مواضع أحدها: في موضع القسمة، وهي الثقة بالله تعالى بأنه لا يفوتك ما قسم لك وإن حكمه لا يتبدل وهذا واجب بالسمع.

الثاني: في موضع النصرة، وهو الاعتماد والوثاقة بنصرة الله عز وجل.

الثالث: في موضع الرزق والحاجة، بأن الله تعالى متكفل بما يقيم به بنيته لخدمته فتتمكن من عبادته وقوله تعالى ﴿ومن يتوكّل على الله فهو حسبه..﴾

وأعلم أن الرزق أربع أقسام:

1- الرزق المضمون: وهو الغذاء، وما به قوام البنية دون سائر الأسباب فالضمان من الله تعالى، لهذا النوع، والتوكّل، يجب بازائه بدليل العقل والشرع لأن الله تعالى كلفنا خدمته وطاعته بأبداننا فضمن ما يسد خلل البنية لنقوم بما كلفنا.

- 2- الرزق المقسوم : وهو قسمه الله تعالى وكتبه في اللوح المحفوظ، ما يأكله ويمشي به ويلبسه كل واحد بمقدار مقدم، ووقت مؤقت لا يزيد ولا ينقص ولا يتقدم ولا يتأخر كما كتب بعينه.
- 3- الرزق المملوك : فما يملكه كل واحد من أموال الدنيا على حسب ما قدر الله تعالى وقسم له أن يملكه، وهو من رزق الله تعالى.
- 4- الرزق الموعود : فهو ما وعد الله المتقين من عبادة بشرط التقوى، حلالاً من غير كد.

المبحث الثاني :- الأخطار :

واعلم أن كفايتها في التفويض، فعليك بتفويض الأمر كله إلى الله سبحانه وتعالى وذلك لأمرين :

أحدهما : لطمأنينة القلب في الحال، فإن الأمور إذا كانت خطيرة مبهمة لا تدري صلاحها من فسادها، فتكون مطرباً، قائم النفس، لا تدري أتع في صلاح أم فساد، فإذا فوضت الأمر كله إلى الله تعالى، علمت أنك لا تقع إلا في صلاح وخير، فتكون آمناً من خطر، فيطمئن القلب في الحال والمال. والطمأنينة والأمن والراحة في الوقت عظيمة.

الثاني : حصول المصالح والخير في الاستقبال، وذلك لأن الأمور بالعواقب مبهمة، فكم من شر في صورة خير، وكم من خير في حيلة نفع. فإن قلت: بين لنا معنى التفويض، وحكمه، فاعلم أن ها هنا موضعين بهما يتضح الكلام:

الأول موضع التفويض : اعلم أن المرادات ثلاثة، مراد يعلم يقينا أنه فساد وشر لا شك فيه البتة كالنار والعذاب مع الفعال كالكفر والبدعة والمعصية.

ومراد تعلم قطعا أنه صلاح كالجنة والإيمان والسنة، ونحو ذلك بالحكم، ولا موضع للتفويض فيه، إذ لا خطر فيه، ولا شك أنه خير وصلاح. ومراد لا تعلم يقينا أن لك فيه صلاح أو فساد، وذلك نحو النوافل والمناجاة، فهذا موضع التفويض، فليس لك أن تريده قطعا بالاستثناء وشرط الخير والصلاح، فإن قيدت الإرادة بالاستثناء، فهو تفويض وإذا أردت دون الاستثناء، فهو طمع مذموم منهي عنه. فموضع التفويض إذن كل مراد فيه الخطر، وهو إذن لا تستيقن صلاحك فيه.

الثاني معنى التفويض، وهو: ترك اختيار ما فيه مخاطرة إلى المختار المدبر العالم بمصلحة الخلق فالتفويض إرادة أن يحفظ الله عليك مصالحك فيما لا تأمن فيه الخطر.

و ضد التفويض الطمع والطمع يجري على وجهين:
أحدهما: في معنى الرجاء، يزيد شيء لا خطر فيه أو مخاطرة بالاستثناء وذلك ممدوح غير مذموم.

الثاني: طمع مذموم، قال النبي ﷺ ﴿إياكم والطمع فإنه فقر حاضر وهلاك الدين وفساده الطمع، وملاكه الورع..﴾

أما حسن التفويض فهو ذكر خطر الأمور وإمكان الهلاك، والفساد فيها، وحصن حصنه، ذكر عجزك عن الاعتصام عن ضروب الخطر، والامتناع عن الوقوع لجهالك وغفلتك وضعفك، والمواظبة على هذين

الذكرين تحملك على تفويض الأمور كلها إلى الله عز وجل، والتحفظ عن الحكم فيها، والامتناع عن إرانتها لشرط الخير والصلاح.

أما الخطر الذي توجبون التفويض لأجله في الأمور، فاعلم أن الخطر في الجملة خطران، خطر الشك بأنه يكون ولا يكون وإنك تصل إليه أو لا تصل إليه، وهذا يحتاج فيه إلى الاستثناء، ويقع فيه باب النية والعمل. والثاني خطر الفساد بأن لا تستيقن فيه الصلاح لنفسك، وهذا الذي يحتاج فيه إلى التفويض، ثم اختلفت عبارة الأئمة في الخطر، فيري بعضهم أن الخطر في الفعل هو أن يكون دونه نجاة، ويمكن أن يجامعه ذنب، فالإيمان والسنة والاستقامة لا خطر فيها، إذ لا يمكن دون الإيمان نجاة الاستقامة ولا يجامعها ذنب، فإذن تصح إرادة الإيمان والاستقامة بالحكم.

المبحث الثالث : القضاء :

وورد أنواعه، وإنما كفايته بالرضا به، فعليك أن ترضى بالقضاء لله عز وجل وذلك لأمرين:

أحدهما : التفرغ للعبادة، لأنك إذ لم ترض بالقضاء فتكون مهموما مشغول القلب أبدا بأنه لو كان كذا، ولماذا لا يكون كذا، فإذا اشتغل القلب بشيء من هذه الهموم كيف يتفرغ للعبادة، إذ ليس لك إلا قلب واحد وقد ملأته من الهموم، وما كان وما يكون من أمر الدنيا، فأَي موضع فيه لنكر العبادة؟

الثاني : خطر ما في السخط من غضب الله جلّ ذكره.

فإن قلت: ليس الشرور والمعاصي بقضاء الله وقدره، فكيف يرضى العبد بالشر ويلزمه. فاعلم أن الرضا، إنما يلزم بالقضاء، وقضاء الشر ليس بشر، وإنما الشر هو المقضي فلا يكون رضا بالشر. وقال

شيئوخنا رضى الله عنهم المقضيات أربعة: نعمة، وشدة، وخير، وشر. فالنعمة يجب الرضا فيها بالقاضي والقضاء والمقضي، ويجب عليها الشكر من حيث إنها نعمة. والشدة يجب الرضا فيها بالقاضي والقضاء والمقضي، ويجب عليها الصبر من حيث إنها شدة. والخير يجب عليه الرضى بالقاضي والقضاء والمقضي وعليه ذكر المنة من حيث إنه خير وفقه له. والشر يجب عليه فيه الرضى بالقاضي والقضاء والمقضي من حيث إنه يقضي لا من حيث إنه شر، وكونه مقضيا يرجع إلى القضاء والقاضي بالحقيقة.

فالرضى والمحبة إنما يكونا بالحقيقة للعلم بمذهب المخالف لا بمذهبه، فكذلك هذا. فإن قيل : فالرضى يكون مستزيدا، قيل له: نعم بشرط الخير والمصالح دون الحكم، فلا يخرج ذلك عن الرضى بل أن يدل على الرضى فهو أولى، لأن من أعجبه شيء ورضى ذلك استزاد منه.

المبحث الرابع : الشدائد :

إن كفايتك للشدائد والمصائب دائما تكون بالصبر في المواطن كلها وإنما ذلك لأمرين:

الأول : الوصول إلى العبادة وحصول المقصود فيها، فإن بني أمر العباد كله على الصبر واحتمال المشقات، فمن لم يكن صبور لم يصل إلى شيء منها بالحقيقة، وذلك أن من قصد عبادة الله تعالى وتجرد لها استقبلته شدائد ومحن ومصائب ووجوه أحدها، أنه لا عبادة إلا في نفسها مشقة، لا يثأى فعل العبادة إلا بقمع النفس إذ هي زاجرة عن الخير ومخالفة الهوى وقهر النفس من أشد الأمور على الإنسان. وثانيهما : إن العبد إذا فعل الخير مع المشقة لزمه الاحتياط حتى لا يفسد. وثالثها : إن الدار دار

محنة، فمن كان فيها فلابد له من الابتلاء بشدائدها ومصائبها، وذلك أقسام المصيبة في الأهل والقربات والإخوان والأصحاب بالموت والفراق، وفي النفس بأنواع الأمراض والأوجاع، وفي العرض يقال الناس إياه والطمع فيه والازدراء به والغيبة والكذب عليه، وفي المال بالذهاب والزوال. ولكل واحدة من هذه المصائب لذعة وحرقة من نوع آخر، فيحتاج إلى الصبر عليها كلها وإلا فيمنعه الجزع والتلف من التفرغ للعبادة. ورابعها : إن طالب الآخرة أشد بلاءً وإبتلاءً وأكثر محنة أبداً، ومن كان إلى الله تعالى أقرب إليه فالمصائب له في الدنيا أكثر، والبلاء عليه أشد، أما تسمع قوله عليه السلام ﴿أشد الناس ابتلاءاً الأنبياء، ثم الشهداء، ثم الأمثل فالأمثل..﴾ فإن من قصد الخير وتجرد لطريق الآخرة استقبلته هذه المحن، فلن لم يصبر عليها ويكون بحيث لا يلتفت إليها، انقطع عن الطريق واشتغل عن العبادة، فلا يصل إلى شيء من ذلك.

الثاني ما في الصبر من خير والآخرة من ذلك النجاة والنجاح قوله تعالى ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً..﴾ ومعناه المخرج من الشدائد وفيها الظفر على الأعداء، ومنها التقدم على الناس والإمامة، ومنها الكرامة العظيمة.

فعلبك باعتماد هذه الخصلة الشريفة التي هي الصبر على المصائب والشدائد، وبذل المجهود فيها تكون من الفائزين.

ثم عليك أخيراً النظر في كيف تقطع هذه العبادة العقبة الشديدة المنسبة بنفع هذه العوارض الأربعة وإزاحة علتها، وإلا فلا تدعك تذكر مقصودك وتحصلها.

الفصل الخامس

عقبة البواعث

عليك يا أخي بالسير إذا استقام لك الطريق وسهلت السبل، وارتفعت العوائق وزالت العوارض، ولا يحصل لك السير المستقيم إلا باستشعار الخوف، والرجاء والتزام حقهما على أحدهما.

أما الخوف، فإنه يجب عليك التزامه، لأمرين، أحدهما: للزجر عن المعاصي، فإن هذه النفس أمارة بالسوء مائلة إلى الشر، طامحة إلى الفتنة ولا تنتهي عن ذلك إلا بالتحذير العظيم والتهديد البالغ، وليست هي في طبعها حرة يهملها الوفاء، ويمنعها الحياء عن الجفاء، إنما هي مائلة دائما للمعاصي. ذكر عن بعض الصالحين أن نفسه دعتة إلى معصية، فانطلق ونزع ثيابه، وجعل يتمرغ في الرمضاء ويقول لنفسه ذوقي، فنار جهنم أشد حرا من هذه.

الثاني: لئلا يعجب بالطاعة، فيهلك، بل يقمعها بالذم والعيب والنقص من الأسواء والأقذار التي فيها ضروب الأخطار، وذلك نحو ما ذكر الرسول (ﷺ) إنه قال: "لو أني وعيسى أخذنا بما كسبت هاتان لعذبنا عذابا لم يعذب به أحدا وأشار بإصبعيه".

وأما الرجاء فإنه يلزم استشعاره لأمرين:

أولا: البحث عن الطاعات، وذلك أن الخير ثقل والشيطان عنه زاجر والهوى إلى ضده داع، وحال أهل الغفلة من عليه الخلق في النفس منطبع شاهد، والثواب الذي يُطلب به عن العين غائب، وأمر الوصول إليه فيما تحسبه بعيد، وإذا كان الحال على هذه الحالة، فلا تتبعث النفس للخير

ولا ترغب فيه، ولا تهتز له إلا بأمر يقابل هذه الموانع ويُسَاوِيها بل يزيد عليها وذلك الأمر هو الرجاء القوي في رحمة الله عز وجل، والترغيب البالغ في حسن ثوابه، وكريم أجره. ولقد قال شيخنا رحمة الله عليه: الحزن يَمْتَنِعُ عن الطعام، والخوف يمنع من الذنوب، والرجاء يقوي على الطاعات وذكر الموت يزهد في الفضول.

ثانياً: ليهون عليك الشدائد والمشقات، واعلم أن من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل، ومن طاب له شيء ورغب فيه حق رغبته، احتمل شرته ولم يبال بما يلقي من مؤنته. ومن أحب أحداً حق محبته أحب أيضاً احتمال محبته حتى أنه ليجد بتلك المحبة ضروباً من اللذة، ألا تري محب العسل لا يفكر في لسع النحل لما يتذكر من حلوة العسل.

وكذلك يا أخي، العباد الذين هم أهل الاجتهاد إذا ذكروا الجنة في طيب رائحتها وأنواع نعيمها من قصورها وحورها وطعامها وشرابها وحليها، هان عليهم ما احتملوه من تعب في عبادة، أو ما فاتهم في الدنيا من لذة ونعمة.

فإن كان أمر العبودية على الأمرين القيام بالطاعة والانتهاز عن المعصية وذلك لا يتم مع هذه النفس الأمارة بالسوء إلا بترغيب وترهيب وتوجيه وتخويف، فإن الدابة الحرون تحتاج إلى قائد يقودها، وإذا وقعت في مهواه فريما ضربت بالسوط من جانب، وينوح لها بالشعير من جانب آخر حتى تنهض وتخلص مما وقعت فيه. وأن الصبي العزم لا يمر إلى الكتاب حتى تنهض بتوجيهه وتقوم بتخويفه. فالخوف سابقها وسوطها، والرجاء شعيرها وقائدها. فعليك بالتزام الخوف والرجاء يحصل لك مرادك ويسهل عليك احتمال المشقة.

فإن قلت: ما حقيقة الرجاء والخوف وأحكامهما؟ فأعلم أن الخوف والرجاء عند علماؤنا يرجعان إلى الخواطر وإنما المقذور للعبد مقدماتها. قالوا: الخوف يحدث في القلب عن مكروه يناله، والخشية نحوه، لكن الخشية تقتضي ضربا من الاستعظام والمهابة. وضد الخوف الجرأة ولكن قد يقابل الأمرين فيقال: خائف وآمن وخوف آمن لأن الأمن هو الذي يجري على الله تعالى. والحقيقة أن الجرأة تضاده. ومقدمات الخوف أربعة: (1) ذكر الذنوب الكثيرة التي سبقت، وكثرة الخصوم الذين مضوا إلى المظالم وانت مرتين لم يتبين لك الخلاص بعد.

(2) ذكر شدة عقوبة الله سبحانه التي لا طاقة لك بها.

(3) ذكر ضعف نفسك عن احتمالها.

(4) ذكر قدرة الله تعالى عليك متى شاء وكيف شاء.

أما الرجاء فهو ابتهاج القلب لمعرفة فضل الله تعالى، واسترواحه إلى سعة رحمة الله وهذا من جملة الخواطر غير المقدورة للعبد الذي هو مقذور، وهو تذكر فضل الله وسعة رحمته. وقد سمي أيضا إرادة المخاطر. والمراد من هذا ذكر حسن الابتهاج والاسترواح وضده اليأس وهو تذكر فوت رحمة الله تعالى وفضله، وقطع القلب عن ذلك وهو معصية محضة. وهذا الرجاء فرض إذ لم يكن للعبد سبيل إلى الامتناع عن اليأس إلا به، وإلا فهو ثقل بعد اعتقاد الجملة في فضل وسعة رحمته.

ومقدمات الرجاء أربعة:

(1) ذكر سوابق فضله إليك من غير شغيع.

(2) ما وعد من جزيل الثواب وعظيم كرامته حسب فضله وكرمه دون استحقاقك أياه بالفعل، إذ لو كان على حسب فعل لكان أقل شيء وأصغر أمر.

(3) ذكر كثرة نعمه عليك في أمر دينك ودنياك في الحال من أنواع الإمداد والألطف من غير استحقاق أو سؤال.

(4) ذكر سعة رحمة الله تعالى ومسبقها غضبه، وأنه الرحمن الرحيم الغني الكريم الرؤوف بعباده المؤمنين.

فإذا واضطبت على هذين النوعين من الإنكار افضينا بك إلى استسعار الخوف والرجاء بكل حال، والله سبحانه وتعالى ولى التوفيق.

فعليك أيها الرجل بقطع هذه العقبة في تمام الاحتياط والتحذر وحد الرعاية فإنها عقبة دقيقة المسلك، خطرة الطريق، وذلك أن طريقها بين طريقين مخوفين مهلكين:

الأول طريق الأمن. الثاني: طريق اليأس.

والرجاء والخوف هو الطريق العدل بين الطريقين الجانزين. فإذا غلب الرجاء عليك حتى فقدت الخوف البتة وقعت في طريق الأمن، ولا يأمرك الله إلا القوم الخاسرون. وإن غلب الخوف حتى فقدت الرجاء البتة وقعت في طريق اليأس، ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون. فإن كنت بين الرجاء والخوف واعتصمت بهما جميعاً فهو بتوفيق الله الطريق العدل للمستقيم.

الفصل السادس

عقبة القوادح

عليك يا أخي أمدك الله وإيانا بحسن توفيقه بعد ما استبان لك السبيل، واستقام لك المسير بتمييز سعيك وصيائنه عما يفسده ويضيعه عليك، وإنما ذلك بإقامة الإخلاص وذكر المنة والاجتناب عن ضده لأمرين:

لما في فعله من الفائدة، وحسن القبول من الله تعالى، ووفور الثواب عليه، وإلا فيكون مردوداً إذا ذهب الثواب كلاً أو بعضاً.

وقيل إن الله تعالى يقول لعبده يوم القيامة إذا التمس ثواب عمله: ألم أوسع لك في المجالس ألم تكن المراس في الدنيا ألم يرخص بيعك وشراؤك ألم تكرم هذا واشباهه من الخطر والضرب؟ قلت: من خطر الرياء فضيحتان ومصيبتان؟

أما الفضيحتان:

فالأولى: فضيحة الصريرة في اليوم على رؤوس الخلائق، وذلك ما روي أن الملائكة تصعد بعمل العبد المستهجن فيقول الله ردوه إلى سجين فإنه لم يردني به فيفضح ذلك العمل والعبد.

الثانية: فضيحة العلانية وهي يوم القيامة على رؤوس الخلق. روي عن النبي ﷺ أن المرأى ينادى يوم القيامة بأربعة أسماء وهي: يا كافر يا فاجر يا غادر يا خاسر، ضل سعيك وبطل أجرك فلا خلاق لك التمس الأجر ممن كنت تعمل له يا مخادع. وروي أنه ينادي منادي يوم القيامة

يُسمع الخلاق: أين الذين كانوا يعبدون الناس رياء قوموا خذوا أجوركم ممن عملتم له فإني لا أقبل عملاً خالطه شيء.

أما المصيبتان:

فالأولى: فوت الجنة، وذلك ما روي عن النبي (ﷺ) أن الجنة تكلمت وقالت: أنا حرام على كل بخيل ومرائي. والخير يحتمل معنيين:

1- إن هذا البخل من بخل بأقبح بخل وهو قول "لا إله إلا الله محمد رسول الله" وهذا المرائي من يراني بأقبح رياء وهو المنافق الذي يراني بإيمانه وتوحيده.

2- أنه لم يثبت رأساً عن البخل والرياء ولم يراع نفسه، فبقع في الكفر، فتفوت الجنة عليه والعياذ بالله.

الثانية: دخول النار، وذلك لما روي أبو هريرة عن النبي (ﷺ) أن أول من يدعى يوم القيامة رجل قد جمع القرآن للقراءة، ورجل قاتل في سبيل الله، ورجل كثير المال. فيقول الله تعالى للقارئ: "ألم أعلمك مما أنزلت على رسولي" فيقول بلى يا رب، فيقول الله تعالى: كذبت وتقول الملائكة كذبت، ويقول تعالى "بل أردت أن يقال فلان قارئ وقد قيل".

فإن قلت: فأخبرني عن حقيقة هذا الإخلاص والرياء وحكمهما وتأثيرهما في العمل. فأعلم أن الإخلاص والرياء وحكمهما وتأثيرهما شديد، فالإخلاص في العمل عند علمائنا اخلاصان:

إخلاص العمل له وهو إرادة التقرب إلى الله عز وجل وتعظيم أمره وإجابة دعوته والباعث عليه الاعتقاد الصحيح.

أما الإخلاص الآخر فهو النفاق بمعنى التقرب إلى الله من دون الله تعالى.

ويقول شيخنا رحمه الله: إن النفاق هو الاعتقاد الفاسد الذي هو للمنافق في الله عز وجل، وليس هو من قبيل الإرادات. وأما الإخلاص في طلب الأمر فهو إرادة نفع الآخرة بعمل الخير. وكان شيخنا رحمه الله يقول: إن أراده نفع الآخرة بعمل الخير لم ترد إلا لجلب منفعة.

والرياء ضربان: رياء محض، ورياء تخليط، فالمحض أن يراد به نفع الدنيا لا غير. والتخليط: أن يراد به نفع الآخرة ونفع الدنيا. أما تأثيرهما فإن إخلاص العمل يجعل الفعل قربة، وإخلاص طلب الأجر أن يجعله مقبولا لا وافر الأجر والتعظيم. والنفاق يحبط العمل ويخرجه عن كونه قربة مستحقا عليه الثواب بالوعد من الله سبحانه وتعالى.

فالرياء المحض لا يكون من العارف عند بعض العلماء، وعند آخرين من العلماء قد يكون الرياء المحض من العارف، وإنما يذهب بنصف الأضعاف، والتخليط يذهب بربع الأضعاف.

والصحيح عند شيخنا أن الرياء المحض لا يكون من العارف مع تذكر الآخرة ويكون مع السهو. والمختار أن من تأثير الرياء دفع القبول والنقصان في الأجر ولا يُقدر له نصف ولا ربع.

أما موضع الإخلاص وفي أي طاعة يقع ويجب فاعلم أن الأعمال عند بعض العلماء ثلاثة أقسام:

الأول: يقع فيه الإخلاصان معاً ويتمثل في العبادات الظاهرة الأصلية.

الثاني: لا يقع فيه شيء منهما، ويمثل في الأعمال الباطنة الأصلية.

الثالث: يقع فيه إخلاص من طلب الأجر دون إخلاص العمل وهو المباحات المأخوذة للعدة.

وإذا قلت: لكل عمل يحتاج إلى إخلاص مفرد؟ فاعلم أنه قد اختلف في ذلك، فقول: إنه يجب لكل عمل إخلاص مفرد. وقيل: يجوز تناول إخلاص بجملة من العبادات، فالعمل ذو الأركان كالصلاة والوضوء يكفيهما إخلاص واحد لأن بعضها متعلق ببعض صلاحاً وفساداً فصارا كشيء واحد. فإن قلت: فإن أراد جعله الخير من الله تعالى ولا يريد من الناس أشياء من مدحه أو سمعة أو منفعة، أكون ذلك فيه رياء؟

فاعلم أن ذلك محض الرياء. وقال علماؤنا رحمهم الله: الأخبار في الرياء بالمراد لا بالذي تريد منه فإن مرادك من عمل الخير نفعا دنيوياً فإنه رياء سواء اردته من الله تعالى، أو من الناس.

القادح الثاني العُجب:

وهو يلزمك اجتنابه لأمرين:

الأول: إنه يحجب عن التوفيق والتأييد من الله تعالى، ويسرع إلى الهلاك، ولذلك قال الرسول (ﷺ) ثلاثة مهلكات: شح مطاع. وهوى متبع. وإعجاب المرء بنفسه.

الثاني: إنه يفسد العمل الصالح. وفي ذلك قال المسيح عليه السلام: يا معشر الحواريين كم من سراج قد اطفأته الريح وكم من عابد أفسده العجب.

فإن قلت: فما حقيقة العجب ومعناه وتأثيره وحكمه؟ فاعلم أن حقيقة استعظام العمل الصالح وتقضيله عند علمائنا رحمهم الله، ذكر العبد حصول شرف العمل الصالح بشيء دون الله عز وجل، أو الناس أو الشيء. وقد يكون للعجب مثلثا بأن يذكر من هذه الثلاثة جميعاً النفس والخلق والشيء. ومثلى بأن يذكر اثنين. وأحاد بأن يذكر من واحد. وضد العُجب ذكر المنّة: وهو أن يذكر أنه بتوفيق الله تعالى وأنه الذي شرفه وعظم قدره. وهذا الذكر فرض عند دواعي العُجب، ونقل في سائر الأوقات.

وأما تأثير العُجب في العمل، فقال العلماء: ينتظر الإحباط فإن تاب قبل موته سلم. والناس في العُجب ثلاثة أصناف:

(1) المعجبون بكل حال: وهم المعتزلة والقدرية الذين لا يرون لله عليهم منه.

(2) أصحاب اللطف: وصفتهم الذاكرون المنّة بكل حال وهم المستقيمون لا يعجبون بشيء من الأعمال وذلك لبصيرة اكرموا بها وتأيد.

(3) المخلصون: وهم عامتنا أهل السنة، تارة ينتهون فيذكرون منّة الله تعالى، وتارة يفعلون ويعجبون وذلك لمكان العقلة العارضة والفترة في الاجتهاد والنقض في التبصر.

فإن قيل: هل يسوى العجب والرياء من قادح في العمل؟ قيل: أجل إن فيه لقوادح لكننا خصصناهما بالذكر لأنهما الأصل الذي يدور عليه معظم الأمر. وقد قال المشايخ: إن حق العبد أن يتحفظ في العمل من عشرة أشياء هما:

النفاق- والرياء- والتخليط- والمن- والأذى- والندامة- والعجب-
والحسرة- والتهاون- وخوف ملامات للناس.
وكل خصلة منها لها ضد، ولها بالعمل.

فصد النفاق الإخلاص، وضد التخليط التفريد، وضد المن تسليم
العمل لله، وضد الأذى تحصين العمل، وضد الندامة تثبت النفس، وضد
العجب نكر المنة، وضد الحسرة اغتنام الخير، وضد التهاون تعظيم
التوفيق، وضد خوف الملامة الخشية.

واعلم أن النفاق يحبط العمل، والرياء يوجب رده، والمن والأذى
يحبطان الصدقة في الوقت، وعند بعض المشايخ يبطلان أضعافها. فأما
الندامة فتحبط العمل في قولهم جميعاً، والعجب يحبط أضعاف العمل فتذهب
وزائته. قلت: فالقبول والرد عند التحصيل يرجعان إلى ضروب التعظيم
والاستحقاق. والاحباط إبطال منافع تكون بالفعل وبسببه، فتارة يكون إبطال
الثواب وأخرى إبطال التضعيف. والثواب منفعة يقتضيها الفعل يعنيه
وقرائنه وأحواله. والتضعيف زيادة على هذا. والرزانة زيادة تحصيل
ببعض قرائن وأحوال أخرى كالإحسان إلى أحد من أهل الخير، ثم إلى
الوالدين ثم إلى نبي من الأنبياء.

فعليك بقطع هذه العقبة المخوفة ذات المتألف، وأن تكون في غاية
السنحرة، فإن صاحب بضاعة الطاعات قد قطع تلك العقبات وتحمل تلك
المشقات حتى حصلت له بضاعة من العبادة عزيزة شريفة، وأنه لا يخاف
على بضاعته تلك إلا في هذه العقبة فإن فيها مقاطع تسلب بها بضاعته،
ومئالف تبدوا له فيها آفات تفسد عليه طاعته. ثم أعظمها خطراً وأعمها

هذان المقطعان اللذان هما الرياء والعجب. فلنذكر في كل واحد منها أصولاً مقنعة تجري هنا لك، لعلك تكفي مؤنتها بإذن الله.

الأصل الأول: إن في الرياء قول الله تعالى ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ينزل الأمر بينهما لتعلموا أن الله على كل شيء قدير﴾.

الأصل الثاني: إن من كان له جوهر نفيس يمكنه أن يأخذ في ثمنه ألف ألف دينار ثم باعه بفلس، أليس ذلك خسراناً عظيماً ودليلاً على قصور العلم وضعف الرأي ودقة للعقل، فما يناله العبد بعمله من الخلق من المدح، دون رضى رب العالمين وشكره وثنائه وثوابه لأقل من فلس في جنب ألف ألف دينار بل، في جنب الدنيا وما فيها، من الخسران المبين أن يفوت الكرامات الشريفة الفريدة بهذه الأمور الحقيرة.

الأصل الثالث: إن المخلوق الذي لأجله تعمل ورضاه تطلب لو علم أنك لأجله تعمل لا بفضلك واستحط عنك واستهان بك واستخف بك، فكيف تعمل لأجل من لو علم به أنه يطلب رضاه لاسخط عليه وأهانته. فاعمل لأجل من إذا عملت لأجله وقصده بسعيك وطلبت رضاه بذلك، أحبك واکرمك وأعطاك.

الأصل الرابع: إن من حصل له الرياء بمسعى لأن يكسب رضى أعظم ملك في الدنيا، فأى رضى لمخلوق حقير ضعيف مهين وهو متمكن من تحصيل رضى رب العالمين الكافي عن الكل. أما العجب فنذكر فيه ثلاثة أمور:

(1) إذا فعل العبد إنما صارت له قيمة لما وقع من الله تعالى موقع الرياء والقبول والرضى، وإلا فترى الأجير يعمل طول النهار بدرهمين

والحارس طوال الليل بدراهم معدودة فإن صرفت الفعل إلى الله يوماً قال
«إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب».

(2) ما يعلم أن الملك في الدنيا إذا أجزأ على أحد حرائه من طعام أو كسوة أو درهم أو دناتير فأنية فإنه يستخدمه بضروب الخدمة آناء الليل والنهار مع ما في ذلك من اللذل والصغار ويقوم على رأسه حتى تخدر رجلاه ويبقى بين يديه إذا ركب، وربما يحتاج أن يكون على بابه طوال الليل حارساً، وربما يبدو له عدو فيحتاج أن يقاتل لأجله ولأجل تلك المنفعة النكرة الحقيرة، مع أنها بالحقيقة من الله تعالى، وإنما هو بمنزلة سبب في ذلك، فربك هو الذي خلقك ولم تك شيئاً ثم ربك وأنعم عليك بالنعيم الظاهر والباطنة في دينك ودنياك.

(3) إن الملك الذي من شأنه أن تخدمه الملوك والأمراء، ويقوم على رأسه العبادات والعظماء، ويتولى خدمته الأولياء والحكماء، ويطلب مدحه العلماء والعقلاء، ألا يقال على العجب به لسفه جداً ومجون، فالهناء من سبحانه هو الملك الذي يسبح له من في السموات والأرض ومن فيهن، وأن من شيء إلا يسبح بحمده، والمعبود الذي يسجد له من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً. فمن الخدم على بابه: الأمين جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وحمة العرش والنبیین، فركعتين إليه سبحانه وتعالى خير من الدنيا وما فيها. ألا تري منته تعالى عليك في ذلك، والله المستعان من هذه النفس الجاهلة.

فبعد هذه الجملة أقول لك: تيقظ من رقنك أيها الرجل في هذه العقبة وأن لا تكن من الخاسرين، فإن هذه العقبة أشد وأشق وأضر وأمر عقبة استقبلتك في هذا الطريق، فإن سلمت فتمت وربحت، وإن كانت

الأخرى فقد ضاع العمر كله، وطاب الأمل، وبطل العمل. ثم الشأن كله أنه قد اجتمع في هذه العقبة ما هنا ثلاثة أمور:

الأول: إن الأمر دقيق جداً وللغبن شديد والخطر عظيم. أما دقة الأمر فإن يجاري للرياء والعجب في الأعمال الدقيقة الضيقة. فلا يكاد يتبیه لذلك إلا كل متمسك بأمر النین، فیصیر یقظان متحرر وإن أطلع علیه الجاهل الملعون والغافل النؤوم.

الثانی: مدة الغبن: فلأن الرياء والعجب أفة عظيمة تقع في لحظة فربما تفسد عليك عبادة سبعين سنة. وحكى أن رجل أضاف سفيان الثوري وأصحابه فقال لأهله: هاتوا الطبق لا الذي أتيت به في الحجة الأولى، بل الذي أتيت به في الحجة الثانية. فنظر إليه سفيان وقال: مسكين قد أفسد عليه حجته. ووجه آخر في الغبن أن أقل طاقة سلمت من الرياء والعجب تكون من الله تعالى. فلينظر العاقل إلى الغبن الذي يضيع عبادة وعمل سبعين سنة.

فعليك بالتحرز من هذه العوائق، ورعاية عبادتك وحفظها بالحمد والشكر، والاحتراس من اختيار المعاصي، حتى تحصل على نعيم الله ووعوده لكل ركوع سجود مسبح لنعم الله عليه.

الفصل السابع

عقبة الحمد والشكر

عليك أخي وفقك الله وإيانا بالتسبيح والتهليل لنعم الله عليك لقطع عقبة الحمد والشكر. فإن قيل: ما حقيقة الحمد والشكر وما معناها وحكمها؟ فاعلم أن العلماء فرقوا بين الحمد والشكر من حيث الأشكال والتسبيح والتهليل، فالشكر من أشكال الصبر والتفويض، وهو يقابل الكفران، والحمد يقابل اللوم، والحمد أعم وأكثر، والشكر أخص وأقل. فقال تعالى ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾.

فثبت أنهما معنيان متميزان، فالحمد هو الثناء على أحد بالفعل الحسن، وهذا معنى مقتضى كلام شيخنا رضي الله عنه ورحمه. أما الشكر فتكلموا في معناه وأكثروا، فعن ابن عباس أنه قال: الشكر هو الطاعة بجميع الجوارح لرب الخلق في السر والعلانية. وإلى نحوه، ذهب بعض مشايخنا فقال: الشكر هو أداء الطاعات بالظاهر والباطن، ثم رجع إلى أنه اجتناب المعاصي ظاهراً وباطناً، وقال غيره: الشكر الاحتراز عن اختيار المعاصي بحريق قلبك ولسانك وأركانك متى لا تعص الله تعالى بشيء من هذه الثلاثة بوجه من الوجه والفرق بين قوله وبين قول الشيخ أنه جعل الاحتراز بمعنى الاجتناب عن المعاصي. وأما الاجتناب عن المعصية فما هو إلا أن لا يفعل المعصية عند داعيها، ولا يكون في نفسه معنى يحصله، فيكون عن العندية منشغلاً، وعن الكفر معتصماً. فإن قلت: فما موضع الشكر؟ فاعلم أن موضعه النعم دينية

ودنيوية على أقدارهما. وأما الشدائد في المصائب في الدنيا في نفس وأهل
وحال، فتسألوا في ذلك: هل يلزم العبد الشكر عليها؟

قال بعضهم: لا يلزم العبد عليها من حيث هي، وإنما يجب فيها
الصبر. وأما الشكر فهو على النعمة لا غير. قالوا: وما عن شدة إلا في
جنبها نعم الله تعالى فيلزم الشكر على تلك النعم المقرونة بها دون نفس
الشدة. وتلك النعم تتمثل فيما قال ابن عمر رضي الله عنهما ما ابتليت ببلية إلا كان الله
تعالى علىّ فيها أربع نعم إذ لم تكن في ديني، وإذ لم تكن أعظم منها، وإذ
لم أهرم الرضا، وإذا وجدت الثواب عليها. وقد قيل أيضاً إن تلك الشدائد
زائلة غير دائمة، وأنها من الله تعالى دون غيره وإن كانت بسبب مخلوق
فإنما لك عليه. فإذن يلزم العبد الشكر على النعم المقترنة بالشدة. وقال
آخرون وهو الأولى عند شيخنا رحمه الله: إن شدائد الدنيا ما يلزم العبد
الشكر عليها لأن تلك الشدائد نعم بالحقيقة بدليل أنها تعرض للعبد لمنافع
عظيمة ومثوبات جزيلة وأعراض كريمة.

أما تري إلى النبي ﷺ كيف حمد الله تعالى وشكره على الشدائد،
وشكره على المسار حيث قال: ﴿الحمد لله على ما ساء وعسر﴾، وما تري
كيف يقول جل وعز ﴿وعسى أن تكرهوا شيء ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾
﴿وسماه خيراً فهو أكثر مما يبلغه وهمك، وإذا كانت الشدة مما تصير سبباً
في زيادة شرف العبد وزيادة نعمته درجة فتكون فيها بالحقيقة، وإذا كانت
تعد في الشدائد والمحن بظاهرها، فاعلم أن ذلك موقفاً فإذا قلت: فالشاكر
أفضل أم العابد؟ فاعلم أن قيل إن الشاكر أفضل بدليل قوله تعالى: ﴿وقليل
من عبادي الشكور﴾ وجعلهم أخص الخواص؛ والشاكر بالحقيقة لا يكون
إلا شاكراً لأن الشاكر في دار المحنة لا يخلو من محنة لا محالة ولا

يجزع، فإن الشكر تعظيم المنعم على حد يمنع عصيانه والجزع عصيان، والصابر لا يخلوا من نعمة، كما ذكرنا أن الشدائد نعم بالحقيقة على المعنى المتقدم فإنه شكر بالحقيقة إذ صبر لأنه حبس نفسه عن الجزع تعظيماً لله عز وجل.

فعلبك أيها الرجل ببذل المجهود في قطع هذه العقبة اليسيرة المؤنة الكبيرة الجدوى العظيمة القدر، وتأمل أصليين: أحدهما: إن النعمة إنما تعطي من يعرف قدرها وإنما يعرف قدرها الشاكر.

الثاني: إن النعمة إنما تسلب من من لا يعرف قدرها، والذي لا يعرف قدرها الكفور الذي كفر بها ولا يؤدي شكرها، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿اتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكن من الخاسرين﴾.

إذن فعلبك أيها الرجل ببذل المجهود حتى تعرف نعمة الله تعالى عليك، وإذا أنعم بنعمة الدين فأياك أن تلفت إلى الدنيا وحطامها فإن ذلك لا يكون منك إلا بضرب التهاون بما أولاك ربك من نعم الدين. قال تعالى ﴿لقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم لا تمدن عينيك إلى ما متعاً به أزواجاً منهم﴾.

فقل الحمد لله الذي منّ على بنعمة الإسلام والحمد لله الأكبر والمنّة العظمى التي هي الإسلام فإنها الأولى والأخرى بأن لا ينفد ليلاك ونهارك عن شكرها. فإن كنت عاجزاً عن عرفاتها قدرها، فاعلم بالحقيقة أنك لو خلقت من أول الدنيا وأخذت في شكر الإسلام من أول الوقت إلى الأبد، لما قضيت بعض الحق لما هنالك من الفوز العظيم.

فلتبدأ أيها المسلم من رقدة الغافلين مع أنني تأملت في عطية الله العبد إذا أعطاه وخدمته وسلك في هذا الطريق عمره فوجدتها على الجهالة أربعين كرامة خلعت عليها، عشرين منها من الدنيا، وعشرين في العقبى، أما الدنيا:

- (1) أن يذكر الله تعالى ويثني عليه ويعبده حق عبادته.
- (2) أن يعظم الله ويشكره وأن يتذكر ضعفه، وقوة وعظمة خالقه.
- (3) إن يحبه. ولو أحبك لارتفعت في مواطن عزيزة.
- (4) أن يكون له وكيلاً ينبر أموره.
- (5) أن يكون رزقه كفيلاً بوجهه.
- (6) أن يكون له نصيراً يكفيه كل عدو.
- (7) أن يكون له أنسياً لا يستوحش بحال ولا يخاف التغير والاستبدال.

- (8) عز النفس فلا يلحقه ذل.
- (9) رفع الهمة. (10) طيب النفس. (11) نور القلب.
- (12) شرح الصدر. (13) تعظيم الأكرام.
- (14) المهابة من الله. (15) البركة العامة.
- (16) تسخير الأرض. (17)
- (18) ملك مفاتيح الأرض.
- (19) القيادة والوجاهة على باب رب العزة.
- (20) إجابة الدعوات.
- وأما التي في العقبى:
- (1) تثبيت من الله تعالى بالقول. (2) هوان أمر الموت.

- (3) ارسال الروح والريحان بالبشرى. (4) الخلود في الجنان.
- (5) الغنيمة بنعم جنات الله تعالى. (6) الأمان من فتنة سؤال القبر.
- (7) تنوير القبر ليكون روضة في الجنة.
- (8) مرافقة الصابرين والمبشرين بالجنة.
- (9) الحشر في العز والكرامة. (10) بياض الوجه وفوره.
- (11) الأمان من أهوال القيامة. (12) أخذ الكتاب باليمين.
- (13) يسر الحساب أو عدم الحساب. (14) ثقل ميزان الحسنات.
- (15) شربة لا يظلم الإنسان بعدها أبداً. (16) النجاة من النار.
- (17) الشفاعة من أكرم المرسلين محمد (ﷺ).
- (18) ملك الأيد في الجنة.
- (19) الرضوان الأكبر.
- (20) التقرب من إله العالمين.
- فليعلم العبد أن لا بد له في الجملة على أربعة: العلم، والعمل،
والإخلاص والخوف؛ فيعلم أولاً الطريق وإلا فهو أعمى، ثم بالعلم وإلا فهو
محبوب، ثم بالإخلاص. وبالإخلاص والخوف فليبدأ أولاً الطريق وإلا فهو
أعمى، وبخلص في عمله وإلا فهو مفتون، ثم لا يزال يخاف ويحذر من
الآفات إلى أن يجوز الأمان وإلا فهو مغرور.
- فالعجب كل العجب، من أربعة:
- الأول: غافل غير عالم. الثاني: عالم غير عامل.
- الثالث: عامل غير مخلص. الرابع: مخلص غير خائف.
- فجملة الأمر وتفضيله قاله رب العالمين في الكتاب العزيز:
- ﴿أفحسبتم أنما خلقتكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ (ولتنتظر نفس ما
قدمت لغد واتقوا الله أن الله خبير بما تعملون).

فمن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين، نستغفره من أقاويلنا التي لا توافق أعمالنا، ونستغفره من كل ما أو عيناه وأضمرناه من العلم بدين الله تعالى، ومن كل خطرة دعتنا إلى تصنع أو تزين في كتاب سطر أو كلام عظمناه، أو علم أقدناه، ونسئله أن يجعلنا وإياكم معشر الأخوان بما علمنا عاملين، ولوجهه به مردين، وأن لا يجعله وبالاً علينا، وأن يجعله في ميزان صالح أعمالنا، إنه جواد كريم.

- 3 -

الدرة الفاخرة فى كشف علوم

الآخرة

"تحليل وفهم وتبصير"

أولاً: نماذج من المخطوطة

كتاب ديرة الفاروق في كشف علو الآف
 نافع الامام محقق والحسين اللذان في السنة والدين
 والمجد والامام الفخر الميرزا محمد باقر
 انصافنا بركة علو، ورعي
 بحسنه ابراهيم

(ضمن ميمه و...)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَبِهِ تَقَى ٥
وَعَلَيْهِ التَّكْلَانِ لِلْمُحْدِثِينَ الَّذِي خَضَّ نَفْسَهُ بِالْأَمْرِ ٥
وَحَكَمَ عَلَى مَنْ سِوَاهُ بِالْأَنْصَارِ ٥ وَجَعَلَ الْمَوْتَ
مَالَ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالْإِسْلَامِ ٥ وَفَضَلَ بَعْلَهُ وَبَيْنَ
تَفَاصِيلِ الْأَحْكَامِ ٥ وَجَعَلَ حَكْمَ الْآخِرَةِ خُلْفًا لِعَمَلِهِ
مِنَ الْأَيَّامِ ٥ وَانْتَهَجَ ذَلِكَ لِمَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ أَهْلَ
الْفَضْلِ وَالْأَكْلَامِ ٥ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ رَسُولِ
الْمَلِكِ الْعَلَّامِ ٥ وَعَلَى آلِهِ وَاصْحَابِهِ الَّذِينَ ابْتَضَعُوا بِحَبْلِ
الْإِنْفَاقِ دَارَ السَّلَامِ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللَّهَ
تَعَالَى يَقُولُ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبِّئْهُمْ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ
فِي ثَلَاثٍ مُوَاضِعٍ وَأَمَّا أَرَادَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَوَاقَاتُ
لِللَّامَةِ

الثلاثة للعالمين فالمتجه الى العالم الدنوي يموت و
 المتجه الى العالم الملكوتي يموت والمتجه الى العالم الجبروتي
 يموت فالاول اذقرو ذريقه وتجميع الحيات على ضروب
 الثلاث والملكوتي وهو الثاني هو اصفى الملائكة
 الجبروت واهل الجبروتى هو الثالث هم المصطفون من
 الملائكة قال الله تعالى الله يظفي من الملائكة رسلا
 من الناس فهم الكروبيون وحمل العرش واصحاب
 سرايات الجلال كما وصفهم الله تعالى كتابه وانى عليهم
 حيث قال ومن عنده لا يسكبون عن عبادته ولا
 يستسرون يستترون الليل والنهار وهم لا يقرون
 وهم اهل حضرة القدس المعينون بقوله تعالى لا تخذلناه
 من لدنا ان كنا فاعلين وهم على هذا المكان من السموات يموتون
 وليس عاقبتهم من الموت القرابة فاقول ما اذكره عن المولى
 العنبري قال اذ يكلمنى المولى عليك واصف لك تسفل
 عن الانسلاخ من حال الى حال ان كنت مضطربا به ورسول
 اليوم الاخير فان ما بينك وبينه يشهد الله تعالى على ما قول
 ويصدق مقال القران وما صحت حديث رسول الله صلى الله

عليه وسلم ^{فصل} - لما قبض الله تبارك وتعالى النبي
الذي قبضها عنده فاستبح على ظهر ادم عليه الصلوة و
السلام ما جمع بين الاول انما جمع من شدة الايمان وكلها
جمع في الجمع الاخر انما جمع من شدة التمال ثم بسط قبضه
سبحانه وتعالى فنظر اليهم ادم عليه السلام وراحته
الكرامتين وهم شجرة الذر ثم قال اسمعوا هؤلاء الى الجنة
ولا ابالي وهؤلاء الى النار ولا ابالي فاهل الجنة يعلمون
يعلم اهل الجنة واهل النار يعلمون يعلم اهل النار فقال
ادم عليه السلام وما علم اهل النار يارب قال بلانية
شركي وبكذب رسلي وعصيان كتابي في الامر و
النهي فقال ادم عليه الصلوة والسلام اسهلهم على انفسهم
عسى ان يعقلوا فاسهلهم على انفسهم التبت بركم قالوا
بلى اسهلنا واسهل عليهم الملائكة وادم انهم اقربوا
بربوبيته ثم ردهم الى مكانهم وانما كانوا احياء انفسا
من غير اجساد فلما ردهم الى صلب ادم عليه الصلوة والسلام
اما هم وقبض رواحهم وجعلها عند خزانه من خزاني
العرش فاذا سقطت النطفة المنقوسة اقربت الرحمات
حتى

حتى اذا له عت صورها والنفس فيها ممتة فليحضرها
 فتعت الجسد من النفس فاذا انفج انه عن رجل فيها الروح
 ردها الى سترها المقبوض منها الذي خبائه زمانا
 خزانة العرش فاضطر به المولود منهم من مولود
 ان يظن انه فرقا بسبعة امة او لم يسمعه فبهذه
 موته يا نبي فذكر من ان الله تعالى جعل قلة اهل
 هذه الدنيا ايام حيوته خيرا ستوفي اهل الحدود
 المقدس وان اثاره المكنونة فادانت منبته وهي الحق
 البهيمية جبريئة عركية فحينئذ تنزل في الاربع من
 الملائكة ملك يجذب النفس من مقادير اليمين و
 ملك يجذب بها من مقادير اليسرى وملك يجذبها
 من يده اليمين وملك يجذب بها من يده اليسرى وربما
 كشف للبهيمية عن الاسرار المكتوبة قبل ان يفرغها من
 اولئك الملائكة العمل على حقيقة عمله لا على ما يتجوز
 اليه من عالمهم فان كان لسانه مغطا ما حدث بوجودهم
 وربما اتفق نفسه واعاد على نفسه الحديث بما راى وتولى
 ان ذكر من فعل الشيطان به فتسبكت حتى يفعل لسانه

من اهل العلم لتعنيفان الخوض يورد بعد حوا
 الصراط الا السبغ الجور وفيها هلاك اكثر
 اكثر الخلق والسبعون الفا الذين يخطون
 الجنة بغير بلا حسنة لا يرفع لهم ميزان ولا يخلو
 صفحا وانما هي براءة مكتوبة فيها لا اله الا الله محمد
 رسولا الله هذه براءة فلان ابن فلان قد غفر الله له
 وسعد فاده لا شفاء بعد لها ابدا من شيء استر
 من ذلك اليوم وذلك المقام والرسول يوم مثل على
 النابر والعلماء والاولياء على منابر صغار وبهم
 ومبشر كل واحد على منبرهم على قدره والعالمون
 العاملون على كل من من نور والشمس والحد
 الصالحون كقرآء القرآن والمؤذنين كلهم على كيسان
 من المسك وهذه الطائفة العامة اصحاب الكراسي
 الذين يطلبون الشفاء من ادم ونوح على شئنا
 وعليهما الصلوة والسلام حتى ينسوها الى رسول الله
 صلى الله عليه وسلم وكل من كور ياتي شفعهم يوم القيمة
 وقد جاء في الجنان القرآن ياتي يوم القيمة صوة

جل

بجل حسن الخلق فيشفع ويشفع والاسلام مثله
 فيقتصر ونحياصم وقد ذكرنا حكمه الاسلام مع
 مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتاب الخصال
 الدين ويعمل خاصته بتعلق به من يشاء الله فيهم
 بهم الى الجنة وكذلك كذا في الدنيا صورة عجوز
 شديدة اشد ما يكون فيقال للناس تعرفون
 هذه فيقولون نعم ذبا لله من هذه فيقال لهم هذه
 الدنيا التي كنتم تتحاسدون عليها وتباعدون
 فيها وتتجادلون لاطها وكذلك كذا في الجنة كانها
 عروس ترفى والمؤمنون حولها قد اصدق بها و
 ظم لهن ما يمتون ويحيط بها كعبان المسك و
 الكافور عليها نوز يتجى منها كل من في الموقف
 حتى تدخل بهم الجنة فانظر حكاية الى هود القرآن و
 الاسلام والمجمع استخلصا وذلك في الدنيا لا يعقل لهم
 عبي بل هو محذور الى عالم الملكوت وعلا حقيقة
 لا يقول الخلق القرآن كما قال الله سبحانه ما خلق
 جهلا منهم جبروتي شخصه والاسلام ملكوتي

كالصلوة والصوم والصبر لا يمتنع ولا يلتفت الى من
 احتج به تلاشي الانفس بقوله صلى الله عليه وسلم
 يوم الخلق اللهم رب هذه الاجسام البالية و
 الارواح الفانية والعظام النخرة وقوله صلى
 الله عليه وسلم تراى اهل القبور ان الميت اذا راى
 الحي يعلم فان ذلك لم يخرجكم وكلمه عرسا عليه
 السلام في هذه الكتاب وقصدا في ذلك الامر
 الاختصار لسلوك سبيل السنة ولا يلتفت الى
 لباع الهارم على الشوط المظهر من شياطين الارس
 والجن مثل الله سبحانه وتعالى والسلام والعصم و
 التعقيق من الخط والخلل والزيادة والزلالة
 ولقيا الاجابة ومولى الامتثال بمنه وكرمه وحده
 الحمد لله على التمام وصلى الله على محمد المظلل بالتمام وتعالى
 ربنا المذكر العلامة المفضل على الانبياء والمرسلين الكرام

كتبه في يوم الجمعة على اثني عشر ايام وعلى

اله واصحاب الكرام ما اتفقت

الليالي والليالي

اليه الفخر

في شوقنا

الى

ثانياً: مضمون ومفهوم النص

استهل الإمام الغزالي كتابه بمقدمة حمداً فيها الله الذي خص نفسه بالدوام، وحكم على مَنْ سواه بالانصرام، وجعل الموت مآل أهل الكفر والإسلام، وفصل بعلم وبين تفاصيل الأحكام، وجعل حكم الآخرة خلافاً للمعهود من الأيام، وانهج ذلك لمن شاء من خلقه لأهل الفضل والإكرام، وبعد الصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الملك العالم، وعلى آله وصحبه الذين اختصهم بجزيل الأنعام في دار السلام، قال: فإن الله تعالى يقول ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾، وثبت ذلك في كتابه في ثلاثة مواضع، وإنما أراد سبحانه وتعالى الموتات الثلاث: فالمتحيز إلى العالم الدنيوي يموت، والمتحيز إلى العالم الملكوتي يموت، والمتحيز إلى العالم الجبروتي يموت.

فالأول آدم ونريته، وجميع الحيوانات، والثاني هو أصناف الملائكة والجن، وأهل الجبروت، والثالث هم المصطفون من الملائكة قال الله تعالى: ﴿الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس﴾ فهم الكروبيون وحمة العرش، وأصحاب سرانقات الجلال، كما وصفهم الله تعالى في كتابه وأثنى عليهم حيث قال: ﴿ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون.. يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾، وهم أهل حضرة القدس المعنيون بقوله تعالى: ﴿لا تخذنا من لدنا إن كنا فاعلين﴾ وهم على هذا المكان من الله تعالى يموتون، وليس بمانعهم من الموت القربات.

فأول ما أذكره لك عن الموت الدنيوي، فألق أذنك لتحصي ما أمليه عليك وأصفه لك، تتنقل عن الانقلاط من حال إلى حال إن كنت مصدقاً بالله ورسوله واليوم الآخر، فإني ما أتيتك إلا ببينة، يشهد الله تعالى على ما أقوله، ويصدق مقالتي القرآن، وما صح من حيث الرسول ﷺ.

ثانياً: مضمون ومفهوم النص

1- الموت الدنيوي

(فصل)

لما قبض الله تعالى القبضتين اللتين قبضهما عندما مسح على ظهر آدم عليه الصلاة والسلام، ما جمع في الجمع الأول إنما جمعه من شقه الأيمن، وكل ما جمع في الجمع الثاني إنما جمعه من شقه الأيسر، ثم بسط يديه سبحانه وتعالى، فنظر إلى بني آدم في راحيته الكریمتين وهم شبه الذر، ثم قال تعالى: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي، فأهل الجنة يعملون بعمل أهل الجنة وأهل النار يعملون بعمل أهل النار. فقال آدم عليه السلام: وما عمل أهل النار يا رب؟ قال: ثلاثة: شرك بي، وتكذيب رسلي، وعصيان كتابي في الأمر والنهي. فقال آدم: إشهدهم على أنفسهم عسى أن يعقلوا، فأشهدهم على أنفسهم ألسنت بر بكم؟ قالوا: بلى شهدنا، وأشهد عليهم الملائكة وآدم أنهم أقرؤا بربوبيته، ثم ردهم إلى أماكنهم.

فلما ردهم إلى صلب آدم عليه السلام أماتهم وقبض أرواحهم وجعلها عنده في خزانة من خزائن العرش فإذا سقطت النطفة المنفوسة أقرت في الرحم، حتى إذا تمت صورتها، منعت الجسد من التنفس، فإذا نفخ الله عز وجل فيها الروح، ردها إلى مَرها المقبوض منها، الذي خبأ زماناً في خزانة العرش فاضطرب المولود، فكم من أن في بطن أمه، فربما سمعته وربما لم تسمعه، فهذه موته ثانية.

ثم إن الله تعالى جلت قدرته أقامه في الدنيا أيام حياته، حتى استوفى أجله المحدود، وورقه المقدور، وأثاره المكتوبة، فإذا دنت منيته - وهي المنة الدنيوية - جزئية غير كلية، فحينئذ ينزل به أربع من الملائكة: ملك

يجذب النفس من مقدمتها اليميني، وملك يجذبها من مقدمتها اليسرى، وملك يجذبها من يده اليميني، وملك يجذبها من يده اليسرى، وربما كشف للميت عن الأمر الملكوتي قبل أن يغرر، أي إطلاع الملائكة على حقيقة عمله، لأعلى ما يتخيرون إليه من عالمهم، فإن كان لسانه منطلقاً حثت بوجودهم، وربما استخف نفسه للحديث بما رأي، فظن أن ذلك من فعل الشيطان، فسكت حتى يعقد لسانه. وهم يجذبونها من أطراف اللبان، ومن رؤوس الأصابع والنفس تتسلل انمزال الماء من السماء.

والفاجر تتسلل روحه كالسفود من الصوف المبلول، هكذا حكى عن صاحب الشريعة ﷺ، والميت يظن أن نفسه قد ملئت شوكاً، وكأنما نفسه تخرج من ثقب إبرة، وكان السماء انطبقت على الأرض وهو بينهما، ولهذا قال النبي ﷺ «سكرة من سكرات الموت أمر من ثلاثمائة ضربة بالسيف» وعندها يرشح جبينه، وتزور عيناه، وترتفع أضلاعه، ويعلو نفسه، ويصفر لونه.

فللميت من شحور النفس ما يغير وجهه عند الموت لعظم ما يلقي من المشقة، فإذا احتضرت نفسه إلى القلب خرس لسانه عن النطق، وما أحد يقدر على النطق والنفس مجموعة في صدره لسرين، أحدهما: ضيق الصدر بالنفس المجتمعة فيه، ولذلك فالإنسان إذا أصبته في صدره بقي مدهوشاً، لا يقدر على الكلام، وكل مطعون يطعن بصوت إلا مطعون الصدر، فإنه يخر ميتاً من غير تصويت.

وأما السر الآخر؛ فهو حركة النفس المندفعة من الحرارة الغريزية، فتصير نفسه متغيرة لحالين: حال الارتفاع، وحال البرودة، لأنه فقد الحرارة. فعند هذين الحالين تختلف أحوال الموتي فمنهم من يطعنه

الملائكة بحرية مسمومة، قد سقيت سماً من نارٍ، فتخر النفس وتقبض جارحة، فيأخذها الملك وهي ترعدُّ، أشبه شئ بالزئبق، ومن الموتى من تجذب نفسه رويداً حتى تنحصر في الحنجرة، إلا شعبة متصلة بالقلب، فتقطعها الملائكة بتلك الحربة الموصوفة، فإن النفس لا تفارق القلب حتى تطعن، وسرَّ تلك الحربة أنها سُمَّت في بحر الموت، فإذا وضعت على القلب سار سرّها في سائر الجسد كالسم الناقع.

وعند استمرار النفس في الترقّي والارتفاع تعرض عليها الفتن، وذلك أن إبليس قد أنقذ أعوانه إلى هذا الإنسان، واستعملهم عليه، ووكّلم به، فيأتون المرء وهو في تلك الحالة، فيتمثلون له في صورة من سلف من الأحياء، والموتى الباعثين له على النصيح في دار الدنيا، كالأب والأخ والأم والأخت والصديق الحميم، فيقولون له: أنت تموت يا فلان، نحن قد سبقناك إلى هذا الدين، فمت يهودياً فهو الدين المقبول عند الله تعالى، ويزينونه له، فإذا انصرفوا عنه وأبى، جاءه آخرون وقالوا له: مت نصرانياً، فإنه دين المسيح الذي نسخ دين موسى عليهما الصلاة والسلام، ويذكرون له عقائد كل ملة.

فعند ذلك يزيغ الله من شاء زيغه، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾. أي لا تزغ قلوبنا عند الموت وقد هديتنا من قبل ذلك زماناً، فإذا أراد الله تعالى بعبده هداية وتثبيتاً جاءته من رحمته من يقول: يا فلان أما تعرفني؟ أنا جبريل، وهؤلاء أعداؤك من الشياطين، فمت على الملة الحنفية، والشريعة المحمدية.

فما شيء أحب إلى الإنسان وأفرح منه بذلك الملك، وهو قوله تعالى: **(وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)**. ثم تفيض روحه على أعين اللطفة.

ومن الناس من يقبض وهو قائم يصلي، أو نائم، أو ماراً في بعض أشغاله، أو منعكف على الهوى، وهوى البقطة، فتقبض روحه مرة واحدة. ومن الناس من إذا بلغت نفسه الحلقوم كُشِفَ له عن أهله السابقين، وحقّ به جيران من الموتى، وحتى يكون له خوار (صوت البقرة) يسمعه كل شيء إلا الإنسان، ولو سمعه لصعق.

والسمع هو آخر ما يُفقد، لأن للروح إذا فارقت القلب، فإن البصر يُسَلَّ معها، وأما السمع فلا يفقد حتى تقبض النفس، ولهذا قال رسول ﷺ: **(لَقِنَا مَوْتَائِمَ بِشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ)**، ونهى عن الإكثار عليهم منها، لما يجدونه من الهول الأعظم، والكرب الأكم. فإذا نظرت إلى الميت وقد سال لعبه، وتقلّصت شفاته، وأسود وجهه، وازرقت عيناه، فاعلم أنه شقي، فكشف له حقيقة شقاوته في الآخرة. وإذا رأيت الميت جاف الفم منطلق الوجه كأنه يضحك، مسكرة عيناه، فاعلم أنه بُشِّرَ برحمة الله، وقد كُشِفَ له حقيقة كرامته.

فإذا قبض الملك للنفس السعيدة: تناولها ملكان حسنا الوجه، عليهما ثياب حسنة، فيلقانها في حرير من حرير الجنة، وهي على قدر النحلة من شخص إنساني، ما فقد من عقله، ولا من العلم المكتسب في دار الدنيا شيئاً، فيعرجا بها في الهواء، فلا يزال يمرّ بالأمم السابقة، والقرون الخالية، كأمثال الجراد المنتشر، حتى ينتهي إلى السماء الدنيا، فيقرع الأمين الباب، فيقال له من أنت؟ فيقول أنا صلصائيل ومعى فلان، كانت عقيدته صحيحة

غير شاك ولا مرتاب؛ ثم ينتهي إلى السماء الثانية فيقرع الأمين الباب، فيقال له من أنت؟ فيقول مقالته الأولى، فيقولون: أهلاً وسهلاً بفلان فقد كان محافظاً على صلواته: بجميع فرائضها وستنها، ثم ينتهي إلى السماء الثالثة فيقرع الأمين الباب، فيقال له من أنت؟ فيقول مقالته الأولى، فيقولون: مرحباً بفلان، كان يراعي حق الله تعالى في ماله، ولا يمسك منه شيئاً، ثم يمرّ حتى ينتهي إلى السماء الرابعة، فيقال له من أنت؟ فيقول كعاقته فيقال: أهلاً وسهلاً بفلان، كان يصوم ويحسن الصوم، ويحفظه عن أدران الرفث وحرام الطعام، ثم ينتهي إلى السماء الخامسة فيقرع الأمين الباب، فيقال له من أنت فيقول كعاقته، فيقال: مرحباً بفلان أدى حجة الله تعالى الواجبة عليه من غير رياء ولا سمعة، ثم ينتهي إلى السماء السادسة فيقرع الأمين الباب، فيقال له من أنت فيقول كدأبه، فيقال: مرحباً بالرجل الصالح، والنفس الطيبة، كان كثير البرّ بالوالدين، ثم يفتح له، فينتهي إلى السماء السابعة، فيقرع الأمين فيقال له من أنت؟ فيقول كدأبه، فيقال: مرحباً فلان كان كثير الاستغفار بالأسحار، وكان يتصدق في السرّ والعلانية ويتكفل الأيتام، ثم يفتح له حتى ينتهي إلى سرادقات الجلال، فيقرع الأمين الباب، فيقال له من أنت؟ فيقول كدأبه، فيقال له أهلاً وسهلاً بالعبد الصالح والنفس الطيبة، كان يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ويكرم المساكين؛ ويمرّ بملاّ الملائكة فيبشرونه بالخير ويصافحونه، حتى ينتهي إلى سدة المنتهى، فيقرع الأمين الباب، فيقال له من أنت فيقول كدأبه، فيقال: أهلاً وسهلاً بفلان كان عمله صالحاً لوجه الله تعالى، ثم يفتح له فيمرّ في بحر من نار، ثم في بحر من نور، ثم في بحر من ظلمة، ثم في بحر من ماء، ثم في بحر من برد، ثم بحر من ثلج طول كل بحر منها

ثمانون ألف مرادق، فيها ثمانون ألف شرفة، على كل شرفة ثمانون ألف قمر تهال الله تعالى وتسبحه وتقدس، لو برز منها قمر واحد إلى السماء الدنيا لعبد من دون الله عز وجل، ولأحرقها من نوره.

وهذا ينادي مناد من وراء تلك الحجب من الحضرة القدسية: من هذه النفس التي جنتم بها؟ فيقال: فلان بن فلان، فيقول الجليل جل جلاله: قربه، فنعم العبد كنت يا عبدي، فإذا لوقفه بين يديه الكريمتين أخجله ببعض اللوم والمعاتبة حتى يظن أنه هلك، ثم يعفو عنه سبحانه وتعالى، كما روي عن يحيى بن أكثم القاضي وقد رأى في المنام فقيل له: ماذا فعل الله بك؟ فقال: أوقفني بين يديه الكريمتين ثم قال لي: يا شيخ السوء، فعلت كذا وكذا، فقلت: يا رب فابهذا حدثت عنك، قال: فبماذا حدثت عني يا يحيى؟ فقلت إلهي وسيدي، حدثني معمر عن الزهري عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ عن جبريل عليه السلام عنك تباركت وتعاليت أنك قلت: إني لاستحى أن أعذب شبيهة شابت في الإسلام. فقال: يا يحيى صدقت وصدق معمر وصدق الزهري وصدق ابن شهاب وصدق عروة وصدقت عائشة وصدق نبيي وصدق جبريل وصدقت أنا اذهب وقد غفرت لك.

ومن الناس من إذ انتهى إلى الكرسي وسمع النداء رثوه، ومنهم من يرد من الحجب، وإنما يصل إلى الله تعالى عارفوه، ولا يقف بين يديه الكريمتين إلا أهل المقام الرابع فصاعداً.

وأما الفاجر فتؤخذ نفسه عتفاً، فإذا وجهه كآكل الحنظلة، والملاك يقول: أخرجي أيتها النفس الخبيثة من الجسد الخبيث، فإذا له خوار كخوار الحمير، فإذا قبضها الملك ناولها لزيانية قباح الوجوه، سود الثياب، منتني

الريح، بأيديهم ستوج من شعر فيلقونها فيها، فتستحيل نفساً إنسانياً على قدر الجردة، فإن الكافر أعظم جرماً من المؤمن في الجسم في الآخرة؛ وفي الصحيح "أن ضرس الكافر في النار مثل جبل أحد"، قال فيخرج به حتى ينتهي إلى سماء الدنيا فيقرع الأمين الباب، فيقال له من أنت؟ فيقول: أنا إذ قاتيل الملك الموكل بزيانية العذاب، فيقال من معك، فيقول: فلان بن فلان، بأكبح أسمائه وأبغضها إليه في دار الدنيا، فيقال له: لا أهلاً ولا سهلاً، فلا يفتح له باب السماء، ولا يدخل الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط، فإذا سمع الأمين هذه المقالة طرّحه من يده، فتھوى به الريح في مكان سحيق، أي بعيد، وهو معني قوله تعالى: ﴿ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق﴾ فيقول: تبا لك من خزّي حل بك، فإذا انتهى إلى الأرض ابتكرته الزبانية، وسارت به إلى سجين، وهي صخرة عظيمة تحت الأرض السابعة، تأوي إليها أرواح الفجار!

وأما النصارى واليهود فيرتنون من الكرسي، هذا من كان منهم على شريعة، ويشاهد غسله ودفنه، ويعاد إلى قبره، وأما المشرك فلا يشاهد شيئاً من ذلك لأنه قد هوى به، وأما المنافق فمثل الثاني يردّ معقوتاً مطروداً إلى حفرته.

وأما المقصّرون من المؤمنين، فتختلف أحوالهم، فمنهم من ترده صلاته لأن العبد إذا فقر في صلاته فإنها تُلَف كما تُلَف الثوب الخلق، ثم يضرب بها وجهه، وهي تقول ضيعك الله كما ضيعتني.

ومنهم من ترده زكاته، لأنه إنما زكى ليقال: فلان يتصدق، وربما وضعها عند النساء. ومنهم من يردّه صومه، لأنه صام من الطعام ولم

يصم عن الكلام الرفث، فيخرج عنه الشهر وقد بهرجه، ومن الناس من يردّه حجه، لأنه إما حج ليقال: فلان حج، أو يكون إنما حج بمال خبيث أي مال حرام، ومن الناس من يردّه عقوق الوللين، وسائر أعمال البر لا يعلمها إلا العلماء بأسرار للمعاملات، وتخليص العمل للملك الوهاب، فكل هذه المعاني جاءت بها الآثار، كالخبر الذي رواه أنس بن مالك عن معاذ بن جبل في ردّ الأعمال وغيره، وإنما أردت تقريب الأمر، وأهل الشرع يعرفون صحة ذلك كما يعرفون أبنائهم.

فإذا رنّت النفس إلى الجسد ووجنته قد أخذ في غسله، فتقع عند رأسه حتى يغسل، فيكشف الله عن بصيرة من يشاء من الصالحين فيعرفها عن صورتها النبوية. وقد حدّث إسمان عن نفسه أنه غسل ابناً له فإذا هو بشخص قاعد عند رأسه، فأدركه الوهم، فترك الجهة التي رأى فيها ذلك الشخص، وتحول إلى الجهة الأخرى، فلم يزل مكانه حتى أدرج الميت في أكفانه، فعاد ذلك الشخص فشاهده وهو على النعش. وقد روى عن غير واحد من الصالحين أنه نادى وهو على النعش أنا فلان بن فلان أنا الروح، فاستفض الكفن من تلقاء ذلك مرتين أو ثلاث. ويكشف الله عن بصيرة من يشاء من خلقه.

فإذا أدرج الميت صارت خارج الصدور ملتصقة بالصدر، ولها خوار وعجيج، وهي تقول: أسرعوا بي إلى رحمة ربي، لو علمتم ما أنتم حاملوني إليه. وإن كان يبشر بالشقاوة يقول رويداً رويداً، إلى أين تسرعون بي وإلى أي عذاب؟ لو تعلمون ما أنتم حاملوني إليه.

ولهذا كان الرسول ﷺ لا تمرّ به جنازة إلا قام لها تعظيماً، فقيل يا رسول الله إنها ليهودي، فقال: أليست بنفس؟ وإنما كان يفعل ذلك لأنه يُكشف له من أسرار الملكوت.

فإذا أدخل الميت في قبره، وهيل عليه التراب ناداه القبر: كم كنت تفرح على ظهري، واليوم تحزن في بطني، وكنت تأكل الألوان على ظهري، واليوم تأكلك للديدان في بطني، ويكثر عليه من هذه الألفاظ الموبخة حتى يستوي عليه التراب، ثم يناديه ملك يقال له دومان، وقد روي ابن مسعود رضي الله عنه عندما سئل رسول الله ﷺ: ما أول ما يلقى الميت إذا أدخل في قبره؟ قال: يا ابن مسعود لقد سألتني عن شيء ما سألتني أحد غيرك، فأول ما يناد به ملك اسمه دومان، يجلس خلال المقابر ويقول: يا عبد الله اكتب عملك، فيقول: ليس معي دواة ولا قرطاس ولا قلم، فيقول: كفك قرطاسك، ومدادك ريقك، وقلمك إصبعك، فيقطع من كفنه قطعة، ثم يجعل العبد يكتب، وإن كان غير كاتب في الدنيا، فيذكر حتى حسناته وسناته كيوم واحد، ثم يطوي الملك هذه الرقعة ويعلقها في عنقه. ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه وتخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾.

فإذا فرغ من ذلك دخل عليه ملكان أسودان يخرقان الأرض بأنسيابهما، لهما شعور مسدولة يجرانها على الأرض، كلامهما كالرعد القاصف، وأعينهما كالبرق الخاطف، ونفسهما كالريح العاصف، بيد كل واحد منهما مقمعة من حديد، لو اجتمع عليها الثقلان ما رفعاهما، لو ضرب بها أعظم جبل لدكته. فإذا رأتهما النفس ارتعدت وولت هاربة، فتدخل في منخر الميت فيحيا الميت من صدره ويكون كهينته عند الفرغة، لا يقدر

على الحركة غير أنه يسمع ويبصر: فيسألانه بعنف وجفاء، وقد صار له التراب كالماء، انفسخ فيه، ووجد فيه فرجة، فيقولان له: مَنْ ربك، وما دينك، وما إمامك، ومن نبيك، وما قبلك؟، فمن وفقه الله تعالى وثبته بالقول الثابت قال: وَمَنْ وكلكما على، ومن أرسلكما إلي؟، وهذا لا يقوله إلا العلماء الأخيار، فيقول أحدهما للآخر: صدق، فقد كُفِيَ شرنا، ثم يضربان عليه القبر كالقمة العظيمة، ويفتحان له بابان إلى الجنة من تلقاء عينيه، ثم يفرشان له من حريرها ورباحينها، ويدخلون عليه من نسيما وريحانها، ويأتية عمله في صورة أحب الأشخاص إليه، يؤنسه ويحدثه ويملا قبره نوراً، ولا يزال في فرح ومرور ما بقيت الدنيا، حتى تقوم الساعة، فليس شئ أحب إليه من قيام الساعة.

ودونها في المنزلة: المؤمن العامل الخير وليس معه حظ من العلم، ولا من أسرار الملكوت، يلج عليه عمله في أحسن صورة، طيب الريح، حسن الثياب، فيقول له: أما تعرفني، فيقول له: من أنت: الذي مَنْ الله على بك في غربتي؟ فيقول: أنا عمك الصالح فلا تحزن ولا توجل، فعما قليل يلج عليك منكر ونكير، فلا تدهش، ثم يلقنه حجه، فبينما هو كذلك إذ خلا عليه كما تقدم ذكرهما، فينهرانه ويقعدانه مستنداً، ويقولان: من ربك، وما دينك، ومن نبيك؟، فيسبق إلى القول الأول، فيقول الله ربي، ومحمد نبيي، والقرآن إمامي، والكعبة قبلتي، وإبراهيم أبي، وملته ملتي غير مستعجم، فيقولان: صدقت، ويفعلان به كما يفعلان بالأول، إلا أنهما يفتحان له باباً إلى النار عن يساره، فينظر إلى حياتها وعقاربها وسلاسلها وزقومها، فيفرع فيقولان: ما عليك من سوء هذا موضعك من النار قد بئله الله تعالى

بموضعك هذا من الجنة، فتم سعيداً، ثم يغلقان عليه باب النار، فلا يدري ما مرّ من الشهور والدهور والأعوام.

ومن الناس من يتعجم في المسألة، فإن كانت عقيدته مختلفة امتنع أن يقول الله ربي، وأخذ غيرها من الألفاظ، فيضربانه ضربة يُشعل منها قبره ناراً، ثم يطفأ عنه إماماً، ثم يُشعل منها قبره وهكذا دأبه ما بقيت الدنيا. ومن الناس من يعسر عليه أن يقول محمداً نبيّ، لأنه كان ناسياً لسنته، ومن الناس من يعسر عليه أن يقول الإسلام ديني لشكّ وقع عنده فكان يتوهمه، أو فتنة تقع به عند الموت، فيضربانه ضربة واحدة يشعل منها قبره ناراً كالأول.

ومن الناس من يعسر عليه أن يقول القرآن إمامي، لأنه كان يتلوه ولا يستعظ به، ولا يعمل بأوامره ولا ينتهي بنواهيه، فيفعل به ما فعل بالآخرين.

ومن الناس من يستحيل عمله كلياً يُعذب به في قبره على قدر جربه. ومن الناس من يعسر عليه أن يقول الكعبة قبلتي، لأنه كان كثير التحرف في صلاته، واختلال في ركوعه وسجوده، ويكفيك ما روي في فضائلها أن الله تعالى لا يقبل صلاة ساهٍ ولا ممن عليه ثوب حرام. ومن الناس من يعسر عليه أن يقول إبراهيم أبي، لأنه سمع كلاماً أوهمه أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً، فهو شكّ مرتاب، فيفعل به كما فعل بالآخرين.

وأما الفاجر فيقولان له من ربك؟ فيقول: لا أدري، فيقولان له: لا دريت ولا عرفت، فيضربانه بتلك المقامع الحديد حتى يتجلجل في الأرض السابعة، ثم تنفضه في الأرض السابعة في قبره، فيضربانه سبع مرات، ثم

تختلف أحوالهم فمنهم من يستحيل عمله كلباً ينهشه حتى تقوم الساعة، وهم الخوارج. ومنهم من يستحيل عمله خنزيراً يعذب به في قبره وهم المرتابون. وهي أحوال تقرئ أهل القبور، وإنما آثرنا الاختصار في ذكرها.

والأصل أن الرجل يعذب في قبره بالشيء الذي كان يخافه في الدنيا، فمن الناس من يخاف الكلب أكثر من الأسد الخيف ومنهم من يخاف الحية، ومنهم من يخاف الجان، فطبائع الإنسان مختلفة، فنسأل الله السلامة والغفران قبل الندامة.

(فصل)

وأما أهل القبور فعلى أربعة أنواع، فمنهم القاعد على منكبيه حتى تُسل العين وتقرم الجبهة، ويعود الجسم تراباً، ثم لا يزال بعد ذلك طوافاً في الملكوت دون سماء الدنيا. ومنهم من يرسل الله عليه نعمة، فلا يدري ما فعل الله به حتى يتنبه من النفخة الأولى، ومن مَنْ لا يقوم على قبره إلاّ شهرين أو ثلاثة، ثم تركب نفسه على ظهر طير تهوي به إلى الجنة، وهو الحديث الصحيح حيث قال رسول الله ﷺ: (نسمة المؤمن وطائره تعطق في شجر الجنة) وروي قتاديل معلقة بالعرش، وكذا سئل رسول الله ﷺ: عن أرواح الشهداء، فقال: (في حواصل طير خدر يعطق في شجر الجنة). ومن الناس من إذا بارت عيناه عرج إلى الصور، فلا يزال ملازماً له حتى ينفخ فيه.

والنوع الرابع هم الأنبياء والأولياء، وهم الأخيار، فمنهم من اختار الأرض أن يكون فيها طوافاً حتى تقوم الساعة، وكثيراً ما يُرى في النوم، وأظن الصديق والفارق منهم، ورسول الله ﷺ له الخيار في الطواف والعوالم الثلاث.

ومنهم من اختار السماء السابعة كإبراهيم عليه السلام، وفي الحديث أنه مرّ عليه ﷺ، وهو مستند ظهره إلى البيت المعمور، وقد أحرق به أولاد المسلمين. وعيسى عليه السلام في السماء الخامسة، وفي كل سماء رسل وأنبياء لا يخرجون منها، ولا يرجون، حتى الصعقة، وليس منهم من له الخيار إلا: الخليل والكليم والصفّي والحبيب، هؤلاء ينتهون حيث شاءوا عن العالمين.

وبعد الحياة الدنيوية حياة ثالثة، والحياة الأولى حياة ﴿أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا﴾، ولا يعتد بالحياة الدنيا، فإنها مسخرة بالنتعم، وقد روي عنه ﷺ قال: ﴿الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا﴾. فهذه أحوال الموتى إذا بانء أعينهم، فمنهم المستقر، ومنهم المضروب عليه، ومنهم المعذب، ومنهم المتعم، والدليل على صحة ذلك قوله تعالى: ﴿النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم القيامة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾.

2- حياة البرزخ

فإذا أراد الله سبحانه وتعالى بقيام الساعة دون النفخ في الصور، فإذا الجبال تطاير وتسير مثل السحاب، وإذا البحار قد تفجر بعضها في بعض، وتكورت الشمس فعادت سوداء مربدة، وسجرت البحار حتى لمتلاً عالم الهواء ماء، ودخل العالم بعضه في بعض، وانكدرت النجوم، وعادت السماء كالدهان الورد، تنور كدوران الرحي، والأرض قد زلزلت زلزالاً شديداً، فتنبض تارة وتتبسط تارة كالأديم، حتى أن الله تبارك وتعالى يأمر بخلع الأفلاك؟، فلا يبقى في الأرضين السبع ولا في السموات السبع ولا في الكرسي ملك إلا وقد ذهب روحه، ولا روح إلا وقد ذهب إدراكه وحياته، وهذا في النفخة الأولى، وقد خلت الأرض من عمارها، والسموات من سكانها على ضروب الموجودين، ثم إن الله تعالى يتجلى في الغمام، فيقبض السموات السبع في يمينه، والأرضين السبع في الأخرى، ثم يقول عز وجل: يا دنيا الدنيا أين عمارك، أين سكانك؟ أين لربابك، أين أصحابك الذين فتنتهم ببهجتك وشغلتنهم عن آخرهم بزهرتك، ثم ينثي على نفسه بما شاء، ويفتخر بالبقاء المستمر، والعز الدائم، والملك الباقي، والقدرة القاهرة، والحكمة الباهرة، ثم يقول: لمن الملك اليوم؟ فلا يجيبه أحد، فيجيب نفسه بأن يقول: لله الواحد القهار، ثم يفعل فعلاً أعظم من الأول، وهو أن يأخذ السموات على إصبع والأرضين على إصبع والبحار على إصبع والأشجار على إصبع، ثم يهزها ويقول سبحانه وتعالى: أنا الملك وأنا الديان، أين الذين عبدوا غيري من دوني، وأشركوا بي، لمن الملك اليوم إلا لي؟ سبحانه وتعالى، ثم يمكث كذلك ما شاء، وليس من العرش إلا القمقام تلوح، وقد ضرب الله تعالى على أذان الحور والولدان

في الجنة، ثم يكشف الله تعالى عن بيت في سقر، فيخرج منها لهب النار، فتشعل في أربعة عشر بحراً، كما تشتعل النار في الصوف المنقوش، فما تدع منها قطرة واحدة، وتدع الأرضين حمأة سوداء، والسماء كأنها عكر الزيت والسنحاس المذاب، فإذا همّ للهب أن يتعلّق بعنان الماء، زجر الله تعالى النار زجرة واحدة، فخمسون ألف عام لا يرتفع لها لهب، ثم يفتح الله تعالى خزانة من خزائن العرش، فيها بحر الموت، فتمطر الأرض مطراً كمنيّ الرجل فتلقى الأرض وهي عطشانة هامدة، فتحيّا الأرض وتهتّز بأمر الله تعالى، فلا يزال المطر عليها حتى يعمها، ويكون الماء عليها أربعين ذراعاً، فإذا الأجسام تثبت من العصص، وفي الحديث أن «الإنسان يبدأ من عجب للذنب»، وفي رواية: «يبلى إلاّ لعجب منه بدأ ومنه يعود» وهو عظم على قدر الحمصة، قال ثم إن الأجسام ليس فيها مخ، فمنه تثبت الأجسام جميعها في مقابرها كما ينبت البقل، حتى يشتبك بعضها ببعض فإذا رأس هذا عند منكب هذا، وفخذ هذا عند عجب هذا، لكثرة الخلاق، وهو معنى قوله تعالى: «قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ».

فإذا تمت النشأة على حسبها، فالصبي صبي، والشيوخ شيخ، والكهل كهل، والشباب شاب، أمر الجليل جل جلاله أن تهب الريح من تحت العرش فيها ناراً لطيفة، فتكشف ذلك الماء عن الأرض وتبقى الأرض بارزة ليس فيها عوج ولا أمت، وقد عادت الجبال فيها رمالاً وهي الكثيب المهيل. ثم يجيئ سبحانه وتعالى عبده إسماعيل، فينفخ في الصور من صخرة بيت المقدس، والصور قرن من نور له أربع عشرة دائرة، الدائرة الواحدة كاستدارة السموات والأرض، فيها تقوب بعدد أرواح البرية، فتخرج

الأرواح ولها دويّ كدويّ النحل، فتملاً ما بين الخافقين، ثم تذهب كل نسمة إلى جثتها، فسبحان من ملأهما حتى الوحوش والطيور وكل ذي روح، فإذا هم كذلك كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾، والجزرة العظيمة كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زُجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾، والساهرة هي الأرض السفلي، إلا أنهم فتحوا أبصارهم عند قيامهم، فنظروا إلى الجبال منسوخة، والبحار منزوفة، والأرض لا عوج فيها، ولا أمّتا، والأمت هو الشئ المرتفع كالكتيب والربوة، والعوج الأرض المنخفضة كالوهرة، وصارت مستوية كالصخرة القاعدة، فتعجبوا لما نظروا إلى الساهرة، وقعد كل واحد منهم مسنداً إليها، قال ﷺ: يحشر الميت في ثيابه. وهو أليق ما رويناه، وروي عن بعضهم: على القبر عرياناً منتظراً متعجباً متفكراً متغيراً، كما ورد في الخبر "حفاة عراة عزلاً (أي غير مختونين) إلا قوماً ماتوا في الغربية مؤمنين لم يكفؤا، فإنهم يحشرون وقد كسّوا ثياباً من الجنة، وقوم أيضاً من أمة محمد ﷺ متخذون السنة ما جفوا عنها بسم الخياط، وقد روي: ﴿يَالْقَوَا فِي أَكْفَانٍ مَوْتَاكُمْ، فَإِنِ أَمْتِي تَحْشَرُ فِي أَكْفَانِهَا، وَسَائِرُ الْأُمَمِ عَرَاةٌ﴾ رواه أبو سفيان. فإذا استوى كل إنسان جالساً على قبره، فمنهم العريان، ومنهم المكسّو، الأسود والأبيض، ومنهم من يكون نوره كالمصباح الضعيف، ومنهم من يكون له نور كالشمس، إلا أن كل واحد منهم لا يزال مطرقاً برأسه، لا يدري ما يصنع به ألف عام، حتى تظهر من المغرب نار لها دويّ تساق، فتدهش لها رعوس الخليقة إنساً وجناً، وحشاً وطيوراً فيأتي كل واحد من الخلق عمله فيقول له: قم وانتفض إلى المحشر، فمن كان عمله جيداً شخص له عمله بغلاً يسير به، ومنهم من يشخص له عمله كبشاً تارة

يحمله وثارة يلقيه، ومنهم من يشخص له عمله حمراً، ويجعل لكل واحد منهم نوراً يسعى شعاعه بين يديه في الظلمات وعن يمينه، وهو قوله تعالى: ﴿يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم﴾، وليس عن شمائلهم نور، بل ظلمة حالكة، لا يستطيع البصر نفاذها، يجتاز الكافر فيها، ويتردد المرتابون، والمؤمنون ينظرون إلى قوة ظلامها، وشدة سوادها، ويحمدون الله تعالى على ما أعطاهم من النور المهدي به في تلك الظلمة.

ويسعى بين أيديهم لأن الله تعالى يكشف لعبده المؤمن المتعم عن أحوال الشقي المعذب، يستبين به سبيل الفائدة، كما فعل لأهل الجنة، وبأهل النار يقول: ﴿فاطلع فراّه في سواء الجحيم﴾، وكما قال سبحانه وتعالى: ﴿وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾، لأن أربعا لا يعرف قدرهم إلا أربع: لا يعرف قدر الحياة الدنيا إلا الموتى، ولا يعرف قدر الصحة إلا أصحاب السقم، ولا يعرف قدر الشباب إلا أهل الهرم، ولا يعرف قدر الفنى إلا الفقراء.

ومن الناس من يسعى على قنميه، وعلى أطراف بنائه، وله نور يطفأ مرة ويشتل مرة أخرى، إنما نورهم عند البعث على قدر إيمانهم، وسرعة خطواتهم على قدر أعمالهم، وسئل الرسول كيف يحشر الناس، قال: "اثنتان على بعير، وخمسة على بعير، وعشرة"، ومعنى هذا الحديث والله أعلم أن قوما ياتلفون في الإسلام فيرحمهم الله تعالى، ويخلق من أعمالهم بعيراً يركبون عليه، وهذا من ضعف أعمالهم إلا أنهم يشتركون فيه، قهم كقوم خرجوا في سفر بعيد وليس مع أحد منهم ما يشتري به مطية توصله، فاشترك في ثمنها رجلان منهم أو ثلاثة، فاشتروا مطية يتعاقبون عليها في الطريق، ويبلغ بعيراً مع عشرة، وهذا العجز في العمل معناه

قبض اليد في المال، أي منع التصديق فيه، ومع ذلك يحكم له بالسلمة، فاعمل هداك الله عملاً يكون لك بعيراً خالصاً من الشركة.

واعلم أن هذا المتجر الراجح للمتقين الوافدين كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقْدًا﴾. وفي غريب الرواية أن رسول الله قال يوماً لأصحابه: ﴿كَانَ رَجُلٌ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ كَثِيرًا مَا يَفْعَلُ الْخَيْرَ حَتَّى إِنَّهُ لِيَحْشُرُ فِيكُمْ، قَالُوا: فَمَا كَانَ يَصْنَعُ، قَالَ: وَرَثَ مِنْ أَبِيهِ مَالًا كَثِيرًا، فَاشْتَرَى بِهِ بَسْتَانًا مَحَبَّةً لِلْمَسَاكِينِ، وَقَالَ: هَذَا بَسْتَانِي عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَفَرَّقَ دَنَاتِي عِدِيدَةً عَلَى الْمَسَاكِينِ، وَقَالَ: بِهَذَا أَشْتَرِي جَارِيَةً عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى وَعَبِيدًا، وَاعْتَقَ رَقَابًا كَثِيرَةً، وَقَالَ هَؤُلَاءِ خَدَمِي فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَانْفَلَتْ يَوْمًا إِلَى ضَرِيرِ الْبَصْرِ، فَرَأَاهُ تَارَةً يَمْشِي وَتِلَاةٌ يَكْبُو فَابْتِاعَ لَهُ مَطِيَّةً يَسِيرُ عَلَيْهَا وَقَالَ هَذِهِ مَطِيَّتِي عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى أُرْكِبُهَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ فَكَانِي أَنْظُرَ وَقَدْ جِئْتُ بِهَا مَسْرُجَةً مَلْجَمَةً يَرْكِبُهَا تَسِيرُ بِهِ إِلَى الْمَوْقِفِ﴾.

وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يَمْشِي مَكْبًا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، إنه مثل ضربه الله تعالى بيوم القيامة في حشر المؤمنين والكافرين، كما قال الله تعالى: ﴿وَنُسَوِّقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثًا﴾، أي مشاة على وجْهِهم عطاشاً، لأن الذي أمشاهم في الدنيا على أقدامهم قادر على أن يمشيهم يوم القيامة على وجْهِهم. هذا قول بعض المفسرين، وليس الأمر كما حكاه وإنما السر في ذلك - تارة يمشي وتارة يكبو على وجهه - والذي يأوله بعيد لأن الله تعالى ذكر الأرجل في قوله تعالى: ﴿وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿عَمِيًا وَبِكَمًا وَصَمًا﴾ عن المقعد الذي أراده.

والمنع من النظر إلى الكريم، مع أن نور الله تعالى تشرق به الأرض البيضاء، أنهم قد ضرب على أبصارهم غشاوة فلا ينظرون إلى شيء من ذلك، وضرب على آذانهم فلا يسمعون كلامه تعالى والملائكة ينادون ﴿لَا خَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ لَدْخَلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾، وكذا منَعُوا الكلام كأنهم بكم، وتفسير قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْنَسُ لَهُمْ فَيَعْتَرُونَ﴾، والمنوع من الشيء موصوف بالضعف عن قدرته.

ومن الناس من يحشر بصفته الدنيوية، قوم مفتنون بالعود منعكفون عليه دهرهم، فعند قيام أحدهم من قبره، يأخذه بيمنه فيطرحه من يده، فيقول: سحقاً لك شغلتنى عن ذكر الله، فيعود إليه ويقول: أنا صاحبك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين، وكذلك يبعث السكران سكراناً يوم القيامة، والزمار زامراً، وكل واحد على الحال الذي صده عن سبيل الله تعالى، وفي مثله الحديث الذي ورد في الصحيح أن شارب الخمر يحشر والكوز معلق في عنقه، والقدر بيده، وهو أثنان من كل جيفة على الأرض، ينعنه كل من يراه ويمر به، والظالم يحشر بظلامته. والمقتول في سبيل الله يسأى يوم القيامة وجرحه يثقب دماً، اللون لون الدم، والريح ريح المسك، حتى يقف بين يدي الله تعالى.

فإذا ساقتهم الملائكة زمراً وأقواً تحت كل واحد منهم ما قدر له، وجمعوا في صعيد واحد الأولون والآخرون، وأمر الله جل جلاله بملائكة سماء الدنيا أن ينزلوا، فيأخذوا كل واحد منهم إنساناً وشخصاً من المبعوثين إنساً وجناً وطيراً ووحشاً، إلى الأرض الثانية، وهى أرض بيضاء من

فضة نورانية، وصارت الملائكة من وراء العالمين حلقة واحدة، فإذا هم أكثر من أهل الأرض بعشر مرات.

ثم إن الله يأمر ملائكة السماء الثانية فيحذقون بالكل حلقة واحدة، فإذا هم مثلهم عشرين مرة، ثم تنزل ملائكة السماء الثالثة فيحذقون بالكل حلقة واحدة، فإذا هم مثلهم ثلاثين مرة، ثم تنزل ملائكة السماء الرابعة، فيحذقون بالكل حلقة واحدة، فإذا هم مثلهم أربعين مرة، ثم تنزل ملائكة السماء الخامسة، فيحذقون بالكل حلقة واحدة، فإذا هم مثلهم خمسين مرة، ثم تنزل ملائكة السماء السادسة فيحذقون من وراءهم حلقة واحدة، فإذا هم مثلهم ستين مرة، ثم تنزل ملائكة السماء السابعة، فيحذقون بالكل من وراءهم حلقة واحدة، فإذا هم مثلهم سبعين مرة، والخلق يتداخل ويندرج بعضهم في بعض، حتى يعلو على القدم ألف قدم لشدة الزحام، ويخوض الناس في العرق على أنواع مختلفة إلى الأذقان، وإلى الصدور، وإلى الركبتين، وإلى الحقوين، ومنهم من يصيبه الرشح اليسير كالقاعد في الحمام، ومنه من نصيبه البلة كالعطشان إذا شرب الماء.

وأصحاب الرشح هم أصحاب أهل المناسب وأصحاب الرأي، وأصحاب الكعيب يموتون غرقاً، والملائكة ينادون لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون، وهذه الأصناف الثلاثة: أهل الرأي والرشح والكعب، هم الذين تبيض وجوههم، ومن سواهم تسود. وملوك الدنيا كالنر، كما ورد في الحديث في صفة المتكبرين، وليس هم كهينة النر عبثاً، غير أن الأقدام علت عليهم حتى صاروا كالنر في مثلتهم وانخفاضهم. وقوم يشربون ماء صافياً بارداً عبثاً، لأن الصبيان يطوفون على آبائهم بكنوس من أنهار الجنة يسقونهم من أنهار الجنة، وقوم على رعوسهم ظل يمنعهم من الحر،

فهي الصدقة الطيبة، فلا يزالون كذلك ألف عام، حتى يسمعون نقر الناقوس، فتوجل له القلوب وتخضع له الأبصار، وتتشقق إليه رعوس المؤمنين والكافرين، يظنون أن هذا عذاب يزداد من هول يوم القيامة، فإذا بالعرش تحمله ثمانية أملاك مسيرة قدم الملك منهم عشرين ألف سنة، حتى يستقر العرش في تلك الأرض البيضاء التي خلقها الله تعالى لهذا الشأن خاصة، فتطرق الرعوس لله تعالى، ثم يدفعون بعد الفزع إلى خزنة جهنم، فتصبح أصواتهم من البكاء والضجيج والثبور، لها رجة عظيمة، حتى يعرض المؤمنون، ويخنس البرايا، وترعب الأنبياء، وتخاف العلماء، وتصرع الشهداء من عذاب الله تعالى الذي لا يطيقه شيء، فبينما هم كذلك إذ غشبهم نور على الشمس الذي كانوا في حرها، فلا يزالون يمججون بعضهم في بعض ألف عام، والجليل جل جلاله لا يتكلم كلمة واحدة، يذهب الناس إلى آدم عليه السلام، فيقول يا آدم، يا أبا البشر الأمر علينا شديداً، فأما الكافرون فإنهم يقولون: نرضى ولو إلى النار، فمن شدة ما ينقون يقولون: أنت الذي خلقك الله ببيده، ونفخ فيك من روحه، اشفع لنا عند ربك في فصل القضاء، فيأمر بالكل إلى حيث شاء الله تعالى فيفعل بهم ما يشاء، فيقول لهم: عصيت الله تعالى حيث نهاني عن الشجرة، وأنا أستحي أن أكله في مثل هذه الحالة، ولكن اذهبوا إلى نوح عليه السلام.

فيقومون ألف عام فيما بينهم، ثم يذهبون إلى نوح عليه السلام، فيقولون له: أنت أول المرسلين، فيذكرون له مثل ذلك، ثم يطلبون منه الشفاعة وفصل القضاء بينهم، فيقول: إني دعوت دعوة أهلك بها أهل الأرض، وإني أستحي من الله تعالى أن أسأله في مثل هذه الحالة، ولكن انطلقوا إلى إبراهيم على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، فإنه

خليل الرحمن، هو سماكم المرسلين من قبل، فلعله أن يشفع لكم. فيتشاورون فيما بينهم ألف عام، ثم يأتيه عليه الصلاة والسلام، فيقولون له: يا إبراهيم، يا أبا المسلمين، أنت الذي اتخذك الله خليلاً، فاشفع لنا إلى الله تعالى، لعله يفصل ما بين الخليقة، فيقول لهم: إني كذبت في الإسلام ثلاث كذبات، فما جادلت بهن عن دين الله، فأنا استحي من الله أن أسأله الشفاعة في مثل هذا اليوم، ولكن اذهبوا إلى موسى، فإن الله تعالى اتخذته كليماً، وقربه نجياً، عسى أن يشفع لكم. فيتشاورون فيما بينهم ألف عام، ولا يزداد الوقت إلا شدة، والموقف يفيض بأهله، فيأتون موسى عليه السلام فيقولون: له يا ابن عمران، أنت الذي اتخذك الله كليماً، وقربك نجياً، وأنزل عليك التوراة فاشفع فينا عند ربك في فصل القضاء فقد طال للمقام، فيقول: إني سألت الله تعالى أن يأخذ آل فرعون بالسنين، وأن يجعلهم مثلاً للآخرين، وأنا استحي من الله تعالى أن أكلمه في مثل هذا المقام مع أسباب جرت بيني وبينه في المناجاة يلج فيها تعريض الهلاك إلا أنه ذو رحمة واسعة، ورب غفور، ولكن اذهبوا إلى عيسى، فإنه أصلح المرسلين يقيناً، وأكثرهم معرفة بالله تعالى، وأشدهم زهداً، وأبلغهم حكمة، فلعله أن يشفع لكم.

فيتشاورون فيما بينهم ألف عام، والحال لا يزداد إلا شدة، والموقف يزداد ضيقاً، فيقولون: حتى متى نحن من نبيّ إلى نبيّ، ومن كريم إلى كريم، ثم يذهبون إلى عيسى عليه السلام فيقولون له: أنت روح الله وكلمته، وأنت الذي سماك ربك وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين، فاشفع لنا عند ربك في فصل القضاء، فيقول لهم: أُنْخِذْتُ وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فكيف أشفع عند من عبدت معه، وسميت له ابناً،

وسُمي لي أباً، ولكن أرايتم لو كان لأحدهم كيس فيه نفقة وعليه خاتم، أيقدر أن يبلغ إلى ما في الكيس حتى يفضّ الخاتم؟ فقالوا نعم، فقال لهم: اذهبوا إلى خاتم المرسلين وسيد المرسلين أبا العرب محمداً ﷺ، أخرجت شفاعة لامتّه، وكثيراً ما آذوه وقومه، حتى شجّوا رأسه وجبينه، وكسروا رباعيته، وبالغوا في أذيتّه، وإنّه لأحسنهم فخاراً، وأكثرهم شرفاً، وهو يقول كما قال الصديق يوسف لأخوته: ﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾، واتلي عليهم من فضائله ﷺ حتى امتلأت نفوسهم حرصاً على الذهاب إليه، حتى أتوا منبره ﷺ فقالوا: أنت حبيب الله، والحبيب أوجه الوسائط، اشفع لنا عند ربك فقد ذهبنا إلى أبينا آدم، فأحالنا على نوح، وذهبنا إلى موسى فأحالنا على عيسى، وذهبنا إلى عيسى فأحالنا عليك، وليس بعدك مطلب، ولا عنك مهرب، فيقول ﷺ "أنا لها، أنا لها حتى يأتني الله لمن يشاء ويرضى"، ثم ينطلق ﷺ إلى سرادقات الجلال فيستأننون له، فيؤذن له، ثم يرفع الحجاب، ويلج العرش، ويخرّ ساجداً ويمكث في سجوده ما شاء الله تعالى، يحمد الله بحامد ما حمد مثلها بها أحد قط، فيتحرك العرش تعظيماً.

والناس في تلك المدة قد ضاق مكانهم وساءت أحوالهم، وترادفت أهوالهم، وقد طوق كل واحد منهم بما يخزيه في الدنيا، فمانع زكاة البعير يحمل بعيراً على كاهله له رغاء، وتقله يعدل الجبل العظيم، ومانع زكاة البقر يحمل ثوراً له خوار، وتقله يعدل الجبل العظيم، ومانع زكاة الغنم، يحمل شاة على كاهله لها ثغاء، وتقله يعدل الجبل العظيم، والرغاء والخوار والثغاء كالرعد القاصف، ومانع زكاة الزرع يحمل على كاهله أعدالاً من الجنس التي بخل به برّاً كان أو شعيراً أثقل ما يكون، ينادي عليه بالويل،

ومانع زكاة المال يحمل شجاعاً أقرع له زبيبتان، وننبه قد صب في منخره، ونقله على كاهله كأنه قد طوف بكل رحي في الأرض، وكل واحد منهم ينادي ما هذا؟ فتأديهم الملائكة، هذا ما بخلتم به في الدنيا رغبة وشحاً عليه، وهو قوله تعالى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

وقوم قد عظمت فروجهم وهي تسيل صديداً، يتأذى من نتنها جيرانهم؟، وآخرون صلبوا على جنوع النيران، وآخرون قد خرجت ألسنتهم على صدورهم وهم للزناة وللواطاة وللكتابون، وآخرون قد عظمت بطونهم حتى صارت كالجبال الرواسي، وهم آكلوا الربا، وكل ذي ذنب قد بدا ذنبه عليه ظاهراً.

فينادي الجليل جل جلاله: "يا محمد ارفع رأسك، وكل تسمع، واشفع تشفع"، فيقول ﷺ: "يا رب افصل بين عبيدك فقد طال مقامهم، وقد فصح كل إنسان بذنبه في عرصات القيامة"، فيأتيه النداء: يا محمد نعم.

ثم يأمر الله الجنة فتزخرف ويؤتى بها، لها طيب أعبق ما يكون وأزكي، فيوجد ريحها من مسيرة خمسمائة عام، فتبرد النفوس وتحيي القلوب، إلا من كانت لهم عملة خبيثة فإنهم يمنعون من ريحها، فتوضع عن يمين العرش. ثم يأمر الله تعالى أن يؤتى بالنار، فتزعب وتفرع، فيأتون بها على أربعة قوائم يقادون بسبعين ألف زمام، في كل زمام سبعون ألف حلقة، لو جمع حديد الأرض كله ما عدل منها حلقة واحدة، على كل حلقة سبعون ألف زباني، لو أمر الزباني منهم أن يدك الجبال لدكها، وأن يهد الأرض لهدها، فإذا لها شهيق ودوي وشرر ودخان يغور، حتى تسد الأفق ظلمة، حتى إذا كان بينها وبين الخلق مقدار ألف عام تغلقت من يد الزبانية، حتى تأتي على أهل الموقف ولها صلصة وتصحيق وسحيق وشهيق، فيقال

ما هذا؟ قال: هي النار نقلت من أيدي الزبانية، ولم يقدروا على إمساكها لعظم شأنتها، فيجث الكل على الركب حتى المرسلون، ويتعلق إبراهيم وموسى وعيسى، الكل على العرش، وهذا قد نسي الذبيح، وهذا قد نسي هارون، وهذا قد نسي مريم، ويجعل كل واحد منهم يقول يا ربّي نفسي نفسي، لا أمالك إلا نفسي، ومحمد ﷺ يقول: يا ربّ أمّي أمّي، سلمها ونجها وليس في الموقف من تحمله ركبته، وهو قوله تعالى ﴿وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم﴾.

وعند نقلتها يكون من الحق والغيب وهو قوله تعالى: ﴿إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً﴾، فبسير الرسول ﷺ بأمر الله تعالى ويأخذ بحزامها ويقول لها: ارجعي مدحورة إلى خلفك حتى تأتي ألواجبك، فتقول خلّ سبيلي يا محمد فإنك على حرام، فينادي مناد من سرادقات العرش: اسمعي له وأطيعيه وينادي مناد من سرادقات الملائكة: اسمعي يا قلر وأطبعي محمداً ﷺ، ثم تجذب، وتجعل عن شمال العرش، ويتحدث أهل الموقف بحديثها، فيخفف وجلهم، وهو قوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾.

فهناك ينصب الميزان، وهو كفتان، كفة عن يمين العرش من درة بيضاء، وكفة عن يساره من ظلمة ثم يكشف الجليل جل جلاله عن ساق فيسجد الناس كلهم تعظيماً وتواضعاً لكبريائه إلا الكفار، والذين قد أشركوا به أيام حياتهم، وعبدوا الأوثان، وما لم ينزل به سلطان، فإن صياصيمهم تعود حديثاً فلا يقدرون على السجود، وهو قوله تعالى: ﴿يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون﴾.

فبينما الناس ساجدون إذ نادى الجليل جل جلاله بصوت يسمعه من بعيد كما يسمعه من قريب: "أنا الملك للديان"، ثم يقضي بين البهائم، ويفتص للجماء من القرناء، ويفصل بين الوحوش والطيور، ثم يقول لهم كونوا تراباً، ثم تسوى بهم الأرض ولا يكتمون لله حديثاً، فحينئذ يؤدّ الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً، ويتمنى الكافر فيقول: "يا ليتني كنت تراباً".

ثم يخرج النداء من قبل الله تعالى: أين اللوح المحفوظ؟ فيؤتى به، فيري أنه هرج عظيم، فيقول الله تعالى: أين سطرت فيك من زبور وتوراة. وإجبل وفرقان؟، فيقول يا رب مل الروح الأمين، فيؤتى به يرد ونصطك ركبته، فيقول الله تعالى: يا جبريل، هذا اللوح المحفوظ يزعم أنك نقلت منه كلامي وروحي، قال: نعم يا رب، قال: ما نقلت منه؟، فيقول: أنهيت التوراة إلى موسى، وأنهيت الزبور إلى داود، وأنهيت الإنجيل إلى عيسى، وأنهيت القرآن إلى محمد، وأنهيت إلى كل رسول رسالته، وإلى أهل الصحف صحفهم. فإذا بالنداء: يا نوح، فيؤتى به ترعد ركبته، ونصطك فرائضه، فيقول له: يا نوح، زعم جبريل أنك من المرسلين، فيقول: صدق يا رب، فيقال: ما فعلت في قومك؟ فيقول: دعوتهم ليلاً ونهاراً، فلم يزدتهم دعائي إلا فراراً، فإذا بالنداء يا قوم نوح، فيؤتى بهم زمرة واحدة فيقول: هذا أخوكم نوح زعم أنه بلغكم الرسالة، فيقولون: كذب، ما بلغنا من شيء، وينكرون الرسالة، فيقول الله: يا نوح أنك عليهم بينة؟ فيقول: نعم يا ربي بينتي عليهم محمد ﷺ وأمته، فيقولون: كيف ونحن أول الأمم وهم آخر الأمم؟، فيؤتى بالنبى ﷺ، فيقول الله سبحانه: يا محمد، هذا نوح يستشهدك، أفششهد له بتبليغ

الرسالة. فيقرأ الرسول ﷺ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ...﴾ إلى آخر السورة، فيقول الجليل جل جلاله: قد وجب عليكم القول وحقت كلمة العذاب على الكافرين، فيؤمر بهم زمرة واحدة إلى النار من غير وزن ولا حساب.

ثم ينادي: أين عاد؟ فيفعل النبي بهم ما فعل مع قوم نوح، فيشهد عليهم مع خيار أمته فيتلو: "كذبت عاد للمرسلين"، فيؤمر بهم زمرة واحدة إلى النار كما فعل بقوم نوح. ثم ينادي يا صالح ويا ثمود، فيأتون، فيتلو النبي ﷺ: ﴿كذبت ثمود المرسلين﴾.. إلى آخر القصة، فيفعل بهم مثل من كان من قبلهم.

ولا تزال تخرج أمة بعد أمة، وقد أخبر عنهم القرآن بياناً وذكرهم فيه إشارة، كقوله تعالى: ﴿وَقَرُونَا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةٌ رُسُلُهُمْ كَذَّبُوهُمْ﴾، ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾، وفي هذا تنبيه على أولئك القرون الطاغية كقوم تارخ ويارخ وإسا وما أشبه ذلك، والنبي يشهد لهم حتى ينتهي النداء إلى أصحاب الرس وتبع وقوم إبراهيم، لا يرفع لهم ميزان، ولا يوضع لهم حساب، وهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون.

ثم ينادي بموسى بن عمران، فيؤتى به كأنه ورقة في يوم ريح عاصف، وقد أصفر لونه واصططكت ركبته، فيقول: يا ابن عمران إن جبريل يزعم أنك قد بلغت الرسالة والتوراة، أفنتشهد له بالبلاغ؟، فيقول: نعم. قيل ارجع إلى منبرك، واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك، فيرتقي ثم يقرأ، فينصت كل من في الموقف، فيؤتى بالتوراة غضة طرية كحسنها يوم أنزلت، حتى يتوهم الأحبار أنهم ما سمعوها ولا عرفوها.

ثم ينادي: يا داود، فيؤتى به وهو يردد كأنه ورقة في يوم ريح عاصف، تصطك ركبته، ويصفر لونه، فيقول: أرق منبرك، واتل ما أوحى إليك من ربك، فيقرأ وهو أحسن الناس صوتاً، وفي الصحيح أنه صاحب مزامير أهل الجنة، فيسمع صوته المقتول أمام التابوت فيقتحم الجموع، ويتخطى الصفوف حتى ينتهي إلى داود عليه السلام فيتعلق به ويقول: أما وعظك الزبور حتى نويت شراً؟ فيخجله ويسكت متعجباً، فيرتج الموقف لما يري الناس من شأن داود، ثم يتعلق به ويسوقه إلى الله تعالى، فيقول: يا رب أنصفني منه فإنه تعمد بي الهلاك، وجعلني أقاتل أمام التابوت حتى قتلت، فزوج امرأتي، وعنده يومئذ تسع وتسعون امرأة غيرها، فيلقت الجليل جل جلاله، فيقول له: أصدق فيما يقول يا داود؟ قال يا رب نعم، قد كان ذلك، وهو منكس الرأس حياء من الله تعالى وتواضعاً لما ينزل به من العذاب، ورجاء فيما وعده الله تعالى من المغفرة، فيقول الله تعالى لصاحبه: قد عوضتك عن هذا كذا وكذا من القصور والحدائق والوالدان، فيقول: رضيت يا رب، ثم يقول لداود: اذهب فقد غفرت لك.

وكذا شأنه سبحانه وتعالى مع من أكرمه، فيعطى عنه من سعة رزقه، ثم يقول له: ارجع إلى منبرك واقرأ ما بقي من الزبور، ثم يؤمر أن ينقسم من أرسل إليهم الزبور قسمين: قسم مع المؤمنين وقسم مع المجرمين.

ثم ينادي: أين عيسى ابن مريم؟ فيؤتى به فيقول له الله تعالى: "أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله" فيحمد الله تعالى ما شاء، ويثني عليه ثناء كثيراً، ثم يعطف على نفسه بالذم والاحتقار ويقول: "سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته

تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب". فيضحك الله تعالى ويقول: "هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم"، ثم يقول: صدقت يا عيسى أرجع إلى منبرك وإلّا الإنجيل الذي بلفك جبرائيل، فيقول: نعم يا رب، فيقرأ فتشخص له الرعوس من حسن ترديده فإنه أحسن الناس رواية، فيؤتى به غضاً طرياً، حتى يظن للرهبان أنهم ما علموا منه آية، ثم ينقسم النصارى قسمين، فالمؤمنون مع المؤمنين، والمجرمون مع المجرمين.

ثم يخرج النداء من قبل الحق تبارك وتعالى: أين محمد ﷺ، ويقول الله تعالى: يا محمد هذا جبريل يزعم أنك بلغت الرسالة، فيقول نعم يا رب، فيقول: أرجع إلى منبرك واقرأ، فيقرأ القرآن فيؤتى به غضاً طرياً له حلالة وعليه طلاوة ويستبشر منه المؤمنون، فإذا وجوههم ضاحكة مستبشرة، ويستثنى منه المجرمون، فوجوههم مغبرة، عليها قفرة، وعلى السؤال المتقدم للرسول والأم يقول الله تعالى فلنسنلن الذين أرسل إليهم ولنسنلن المرسلين"، فيجمع الله الرسل فيقول "ماذا لجيتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب".

فإذا فرغت الرسل من قراءة الكتب خرج النداء من سرافات الجلال: (وامتازوا اليوم أيها المجرمون). فيرتج الموقف، ويقوم فيه روع عظيم، والملائكة امتزجت ببني آدم، ثم يخرج النداء: يا آدم ابعد من بنيك بعثاً إلى النار، فيقول يا رب من كم كم؟ فيقول له: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة، فيستخرج من سائر الملحدين والغافلين والفاسقين، حتى لا يبقى إلا قدر حفنة التراب، فمنهم من يرفعهم الميزان، فإذا سيئاته ترجح على حسناته، وكل ما

وصلته الشريعة لابد له من الميزان، فإذا اعتزلوا أيقنوا أنهم هالكين، وقالوا: آدم ظلمنا، ومكن الشياطين من نواحينا، فإذا النداء من قبل الله تعالى: ﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب﴾. فيستخرج لهم كتاباً عظيماً يمد ما بين المشرق والمغرب فيه جميع أعمال الخلاق، فما كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها، ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً، وفي ذلك أن أعمال الخلاق تعرض على الله كل يوم، فيأمر الكرام البررة أن ينسخوها في هذا الكتاب العظيم، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ثم ينادي فرداً فرداً، ثم يحاسب كل واحد منهم، فإذا الأقدام تشهد، وهو قوله تعالى: ﴿يوم تشهد عليهم السنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾.

ثم يدفعون بعد الفراغ إلى خزنة جهنم فترتفع أصواتهم بالبكاء والضجيج والنبور، لهم رجة عظيمة، حتى يعرض المؤمنون الموحدون، فتحق الملائكة بهم تقول: "هذا يومكم الذي كنتم توعدون". والفرع الأكبر عند أربعة مواضع: عند نقر الناقور، وعند تقلت جهنم من الخزنة، وعند إخراج آدم بعث النار، وعند رفع الناس إلى الخزنة.

فإذا بقي الموقف ليس فيه إلا المؤمنون والمسلمون والمحسنون والعارفون والصديقون والشهداء والصالحون والأنبياء والمرسلون، ليس فيهم مراتب ولا منافق ولا زنديق، فيقول الله تعالى: يا أهل الموقف من ربكم؟ فيقولون الله، فيقولون لهم: أتعرفونه؟ فيقولون نعم، فيجلس لهم ملك عن يسار العرش لو وضعت البحار في نقرة إيهامه ما ظهرت، فيقول بأمر الله تعالى: أهلاً بكم أنا ربكم، فيعزّون منه بالله، ثم يتجلى لهم سبحانه في صورته التي كانوا يعرفونها ويسمعونها وهو يضحك، فيسجدون له

جميعهم، فيقول لهم الحق: أهلاً بكم، ثم ينطلق سبحانه إلى الجنة فيتبعونه، فيمرّ بهم على الصراط والناس أفواج، المرسلون، ثم النبيون، ثم الصديقون، ثم المحسنون والعارفون، ثم الشهداء، ثم الصالحون، ويبقى منهم المسلمون، منهم المكبوب على وجهه، ومنهم للمحبوس في الأعراف، ومنهم من قصر على عامّ الإيمان، ومنهم من يجوز على الصراط في مائة عام، وآخر يجوز في ألف عام، ومع ذلك لن تحرق النار من رأي ربه عياناً.

وفي الصحيح أن أول ما يقضي الله فيه الدماء، وأن أول ما يعطي أجورهم هم الذين ذهبت أبصارهم، قيل: ينادي يوم القيامة بالمكفوفين، فيقولون له: أنت أحق من ينظر إلينا، قال: ثم يستحي الباري جل جلاله منهم، ويقول لهم: أذهبوا إلى ذات اليمين، وتعدّ لهم راية، وتجعل بيد شعيب عليه السلام، فيسير أمامهم إلى الجنة، ومعهم ملائكة النور يزفونهم إلى الجنة كما تزف العروس، فيمرّ بهم على الصراط كالبرق الخاطف، وصفة أحدهم الحلم والصبر والعلم، : كابن عباس ومن ضاهاه من هذه الأمة.

ثم ينادي: أين أهل البلاد، ويريد المجنومين ومن شاكلهم، ويؤتى بهم ويحييهم الله بحية طيبة بالغة، ويأمرهم إلى ذات اليمين، وتعدّ لهم راية خضراء، وتجعل بيد أيوب عليه السلام، فيعبر أمامهم إلى الجنة، وصفتهم صبر وحلم وعلم كعقيل بن أبي طالب، ومن ضاهاه من هذه الأمة.

ثم ينادي: أين أهل الشباب المتعفون من هذه الأمة؟، فيؤتى بهم إلى بين يدي الله تعالى، فيرحّب بهم ثم يأمرهم إلى ذات اليمين، وتعدّ لهم

راية خضرَاء، وتجعل في يد يوسف الصديق عليه وعلى نبيينا الصلاة والسلام، ويسير أمامهم إلى الجنة، وصفتهم صبر وعلم وحلم كراشد بن سليمان ومن ضاهاه من هذه الأمة.

ثم يخرج النداء: أين المتحابون في الله تعالى؟، فيؤتى بهم إلى الله فيرحب بهم ويقول ما شاء الله أن يقول، ثم يؤمر بهم إلى ذات اليمين، وتعتقد لهم راية صفراء، وتجعل بيد هارون عليه السلام، ويسير أمامهم إلى الجنة، وصفة المتحابين في الله صبر وحلم، لا يسئ ولا يسخط، ولا يرضى بسئى كآبى، أعنى على بن أبى طالب ومن ضاهاه من هذه الأمة.

ثم يخرج النداء: أين الباكون من خشية الله؟ فيؤتى بهم إلى الله تعالى فيزنون دموعهم ودماء الشهداء ومداد العلماء فيرجح النعم، فيؤمر بهم إلى ذات اليمين، وتعتقد لهم راية ملونة، لأنهم بكوا بأنواع مختلفة من السكاء، هذا بكى خوفاً، وهذا بكى طمعاً، وهذا بكى ندماً، وتجعل بيد نوح عليه السلام، فتطلب العلماء التقدّم عليهم ويقولون: علّمنا أبكاهم، فإذا بالنداء على الرسل، فتوقف الزمرة، ثم يوزن مداد العلماء ودماء الشهداء، فيرجح دم الشهداء، فيؤمر بهم إلى ذات اليمين، وتعتقد لهم راية من عنده، وتجعل في يد يحيى عليه السلام، ثم ينطلق بهم، فتهمّ العلماء بالتقدّم، ويقولون: نحن أحقّ منهم بالتقدّم، فيضحك الله تبارك وتعالى ويقول لهم: أنتم كاتبائي، واشفعوا فيمن تشاءون، فيشفع العالم في جبرانه وإخوانه، ويأمر كل واحد منهم أن ينادي في الناس، ألا إن فلاناً العالم قد أمر أن يشفع، فمن قضى له حاجة، أو أطعمه لقمة حين جاع، أو سقاه ماء حين عطس فليقم، فإنه يشفع له.

وفي الصحيح أن أول من يشفعون المرسلون، ثم الأنبياء، ثم العلماء، ثم تعقد لهم راية بيضاء، وتجعل بيد إبراهيم عليه السلام فإنه أشد المرسلين، ثم ينادي: أين الفقراء؟ فيؤتى بهم إلى بين يدي الله تعالى، فيقول لهم: مرحبا بمن كانت الدنيا سجنهم، ويأمرهم إلى ذات اليمين، ويعقد لهم راية صفراء، وتجعل بيد عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام، ويسير أمامهم إلى الجنة.

ثم ينادي أين الأغنياء، فيؤتى بهم إلى بين يدي الله تعالى، فيعند لهم ما وصف لهم إلى خمسمائة عام، ثم يأمر بهم إلى ذات اليمين، وترفع لهم راية ملونة وتجعل بيد سليمان بن داود عليه السلام، ويسير أمامهم إلى الجنة وفي الحديث: ما شغلكم عن عبادة الله تعالى؟ فيقولون: أعطانا الله ملكاً شغلنا به عن القيام بحقه، واللذات بذكره في دار الدنيا، فيقال: من أعظم ملكاً، أنتم أم سليمان؟ فيقولون: بلى سليمان، فيقال لهم: ما شغله عن القيام بحقيّ وذكرى. ثم ينادي أين أهل البلاء؟ فيؤتى بهم أنواعاً، ثم يقال لهم: أي شئ شغلكم عن عبادة الله تعالى؟ فيقولون: ابتلانا الله في الدنيا بأنواع من البلاء والآلام شغلتنا عن ذكره والقيام بحقه، فيقال لهم: من أشد بلاء أنتم أم أيوب؟ فيقولون: بلى أيوب أشد بلاء، فيقول لهم: ما شغله عن القيام بحقيّ واللذات يذكرى، ثم ينادي: أين للشباب العطرة والمماليك، فيؤتى بهم، فيقول لهم: ما الذي شغلكم عن أمري؟ فيقولون: أعطيتنا حسناً وجمالاً فتنا به، ويقول المماليك: شغلنا رق العبودية في الدنيا، وكنا مشغولين عن القيام بحقك، فيقال لهم: أيهم أكثر جمالاً أنتم أم يوسف، فيقولون: بلى يوسف، فيقال: كان في رق العبودية، ما شغله ذلك عن القيام بحقيّ، ثم ينادي: أين الفقراء؟، فيؤتى بهم أنواعاً فيقال: ما الذي شغلكم

عن عبادة الله؟ فيقولون: ابتلانا الله تعالى في دار الدنيا بفقر مدقع، شغلنا عن القيام بحقه، فيقال لهم: من أشد فقراً أنتم أم عيسى؟ فيقولون عيسى. فيقال: ما شغله ذلك عن القيام بحقي.

فمن ابتلى بشئ من هذه الأربع فليذكر صاحبه، وقد كان رسول الله ﷺ يقول: ﴿اللهم إني أعوذ بك من فتنة الغنى والفقر﴾، وقيل كان بالمسيح الفقر فاعتبر بالمسيح، فقد صح أنه لبس جبة واحدة عشرين سنة، وما كان له في سياحته إلا مشط وكوز، فرأي يوماً رجلاً يشرب بيده، فرمى بالكوز، ورأي رجلاً يترج لحيته بيده فرمى المشط، لم يمسكها بعد ذلك.

وكان يقول: دابّتي رجلاي، وبيوتتي كهوف الأرض، وطعمي نباتها، وشرابي أنهارها، أي غنيتي أكثر من هذا؟.

وقيل: يؤتى عبادة يوم القيامة، فيقول الله تعالى: كيف حالك في الدنيا؟، فيقول يا رب عبادتك خمسمائة سنة في جزيرة أحرق بها البحر، وما تألست فيها إلا بذكرك صوماً وصلاة حتى مت ساجداً، فيقول الله: صدقت، أدخل الجنة برحمتي، فيقول: يا رب بل بعلمي، فيقول: هلم حتى نتحاسب، من قواك على عبادتي خمسمائة عاماً في الجزيرة صوماً وصلاة؟ فيقول: أنت ربي، فيقول: من أنبت لك رمثة ثمر كل حبة تفتت بها؟ فيقول: أنبت رب، فيقول: من فجر ينبوعاً من ماء عذب في تلك الجزيرة المحدث بها البحر الأجاج تشرب منها وتقتصل؟ فيقول: أنت يا رب، فيقول: من أجابك حين دعوت وقلت: اللهم اقبضني ساجداً؟ فيقول: أنت يا رب، ثم يرفع له الميزان، فإذا عبادة خمسمائة سنة ما وقت نعمة البصر، فيقول عز وجل: اذهبوا به إلى النار، ثم يردّه إليه بأمره من بعض

الطريق، ثم يضحك الله تبارك وتعالى ويقول له: ادخل الجنة برحمتي،
فنعم العبد كنت لي.

وكذلك يأتي رجل يوم القيامة فيحاسب فيرمى به إلى النار، فبليتت
في سيرة إلى ورائه، فيقول الله تعالى: ردّوه، فإذا أتوا به يقول الله تعالى:
مالك التفت إليها العبد السوء، مالك تنتظر في مسيرك؟ فيقول: يا رب،
كنت أعصيك وأنا أرجوك، ومتّ وأنا أرجوك، وأمرت بي إلى النار وأنا
أرجوك، فجعلت التفت نحوك، فيقول الله عز وجل: رجوت كريماً، وطمعت
رحيماً، اذهب فقد غفرت لك.

وربما كان الغفران من الله تعالى والمحاسبة في حقوق الناس إلا
القتل متعمداً، فإنه ليس يغفر أبداً كالشرك، إلا من أسلم من الشرك وتاب
من القتل توبة خالصة، فإن القاتل قتل من أحياء الله تعالى، وفي بعض
الكتب: ما أظلمك، شاركتني في فعلي، ألم تر كيف فعلت؟ أنا أحيي وأنت
تميت إليها القاتل وإلا فقد بارزتني بالمحاربة.

والكبائر قد يرجى لصاحبها الشفاعة بعد التخليص، فأكرمهم على
الله يخرج من النار بعد ألف سنة، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى
يقول في كلامه: يا ليتني كنت ذلك الرجل، فإنه كان عالماً بأمور الآخرة.
قال: ويؤتني يوم القيامة برجل فما يوجد حسنة يرجح بها ميزانه، وقد
اعتدلت بالمسوية، فيقول الله تعالى رحمة منه وعلماً: اذهب في الناس،
والتمس من يعطيك حسنة أدخلك بها الجنة. فيجوز خلال العالمين، فما
يجد أحداً يكلمه في ذلك الأمر إلا يقول له: خفت أن يخف ميزاني، فأنا
أحرج منك إليها فيبأس، فيقول له رجل: ما الذي تطلب؟ فيقول: حسنة، فقد
مررت على أقوام لهم آلاف الحسنات، فيخلوا عليّ، فيقول الرجل: لقد

لقيتني وما بقي لي إلا حسنة واحدة، وما أظنها تغني عني، هي لك، فينطلق بها فرحاً مسروراً، فيقول الله: مالك؟ (وهو أعلم)، فيقول من أمري كَيْتَ وكَيْتَ، ثم ينادي سبحانه وتعالى: يا صاحبه الذي وهبته الحسنة، كرمي أوسع من كرمك، خذ بيد أخيك وانطلق به إلى الجنة. وكذلك تستوى كفتا الميزان لرجل، فيقول الله تعالى: لست من أهل الجنة ولا من أهل النار. فيأتي الملك بصحيفة مكتوب فيها "أف" فترجح على الحسنات، لأنها كلمة عقوق ترجح بها جبال الدنيا، فيؤمر به إلى النار، قال: فيطلب الرجل أن يرده الله إليه، فيقول الله: ردوه أيها العبد العاق، لأي شيء تطلب الرد؟ فيقول: إلهي رأيت أبي سائراً إلى النار؟ وأنا لا بد لي منها، وكنت عاقاً لأبى في الدنيا، وهو سائر إلى النار مثلي، فضغف على عذابي وأنقذه منها. قال: فيضحك الله ويقول: عققته في الدنيا وبررته في الآخرة، كرمي أوسع من كرمك، خذ بيد أبيك وانطلق به إلى الجنة.

فما من أحد يذهب به إلى النار إلا والملائكة توفقه، لعلمهم سرّ أحكام الآخرة. وينادي بقوم لاخلاق لهم خلقوا خطبا وحشوا، فيقال ﴿وقفوا هم إثم مسئولون﴾، فتحبس تلك الزمرة حتى يخرج النداء فيهم ما لكم لا تناصرون "فيستسلمون للبكاء، ويعترفون بالذنب، كما قال تعالى: ﴿فاعترفوا بذنبيهم فسحقاً لأصحاب السعير﴾، فيدفعون دفعة واحدة إلى النار. وينادي بأهل الكبائر من أمة محمد ﷺ كهولاً وعجائز وشيوخاً وشباباً ونساء، فإذا نظر إليهم مالك خازن النار قال: من أنتم معاشر الأشقياء؟ مالي أرى أيديكم لا تغل، ولا توضع الأغلال والسلاسل، ولم تسود وجوهكم، وما ورد على أحسن منكم حالاً؟ فيقولون: يا مالك، نحن أشقياء من أمة محمد، دعنا نبك على ذنوبنا، فيقال: ابكوا فلن ينفعكم البكاء،

من شيوخ وضع يده على لحيته ويقول واشيبتاه، ويا طول حزنائه، ويا ضعف قوتاه، وكم من كهل ينادي وامصبيتاه وأطول مقاماه، وكم من شاب ينادي واشباباه والأسفاه على تغير حسناه، وكم لمرأة تتنادي واشباباه واهتك سرتاه، فيكون ذلك مقدار ألف عام، فإذا النداء من قبل الله تعالى: يا مالك أدخلهم النار الباب الأول منها، فإذا همت النار تأخذ أحدهم قالوا جميعهم لا إله إلا الله، قال فتقر النار منهم مسيرة خمسمائة عام، ثم يأخذون في البكاء فتشتد أصواتهم، فإذا النداء من قبل الله تعالى: يا نار خذيهم، فعندئذ تسمع لهم صلصلة كالرعد، فإذا همت النيران أن تأخذ قلوبهم، زجرها الملك وجعل يقول: لا تحزن قلباً فيه القرآن، وكان وعاء للإيمان، وإذا الزبانية قد جاءوا بالحميم ليصبوا في بطونهم، فيزجرها الملك، ويقول: لا تدخل الحميم والعذاب بطوناً أخصصها الرضخان، ولا تحرق النار جباها سجدت لله تعالى، فيرتدون فيها حمراً كالفساق المحلوك، والإيمان يتلأأ في القلوب.

وكذلك يكثر صياح رجل في النار حتى يعلو صوته على صوت أهل النار، فيخرج وقد امتحن، فيقول الله: مالك تصيح أكثر من أهل النار؟ فيقول: لم أياأس ولم أفتن من رحمتك، فيقول الله تعالى: (ومن يفتن من رحمة ربه إلا الضالون)، اذهب فقد غفرت لك.

وكذلك يخرج من النار رجل، فيقال له: خرجت فبأي عمل تدخل الجنة؟ فيقول: ما أسألكم عنها إلا يسيراً، فترفع له شجرة من أشجار الجنة فيقول الله تعالى: أرايتك لو أعطيتك هذه الشجرة، هل تسألني غيرها؟ فيقول: لا وعزتك يا رب، فيقول الله: هي هبة مني إليك، ثم يقول الله تعالى: مالك، لعلك أحببتها؟ فيقول: يا رب نعم، فيقول الله: إن أعطيتك تسألني غيرها؟ فيقول لا وعزتك يا رب، فيقول: هي هبة مني إليك، فإذا

أكل من ثمرها، واستظل بظلها رفع له شجرة أحسن منها، فيكثر النظر إليها، فيقول الله تعالى: مالك؟ لعلك أحببتها؟ فيقول يا رب نعم، فيقول الله تعالى: لعلك إن أعطيتها لك تسألني غيرها؟ فيقول: يا رب وعزتك لا أسألك غيرها، فيضحك الله منه ويدخله الجنة، ويجعل له مثلها أضاعفاً مضاعفة.

وقد أكثر من إيراد تلك الحكايات في الأحياء (إحياء علوم الدين)، وفي الخبر أن الله تعالى حين يتجلى لهم يقبض السموات السبع يميناً، والأرضين شمالاً، وهو قوله تعالى: ﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده﴾، والسجل اسم لما يكتب فيه، وكل ما ليس فيه كتابة ولا رقم، قيل قرطاس، وفي الصحيح "أن أول طعام يأكله أهل الجنة كبد الحوت، فيشوى ويعطى لهم". وقيل إنهم يدخلون الجنة على قامة آدم عليه السلام جرداً مردأً مكحلين، قال الله تعالى: ﴿والوزن يومئذ الحق﴾ الآية.

ومن غريب الآخرة أن الرجل يؤتى إلى الله تعالى وتقدس، فيوقفه بين يديه، ويزن حسناته وسيناته، وفي ذلك يظن أن الله تعالى ما حاسب أحداً سواه، ولعل في تلك اللحظة حاسب آلاف ألوف لا يحصى عددهم إلا الله تعالى، كل منهم يظن أن الحساب له. كذلك أن بعضهم لا يرى بعضاً، ولا يسمع بعضهم بعضاً، كل منهم تحت أستاره، فسبحان من هذا شأنه، وسبحان من هذه بعض قدرته، وعجائب حكمته، خاب وخسر وذل من عظم غيره تعالى، ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾، وفي قوله تعالى: ﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان﴾، سرّ عجيب من أسرار الملك والمكوت، إذ ليس لملكه حدّ، فسبحان من لا يشغله شأن عن شأن.

وفي هذه الحكاية يأتي الرجل إلى ولده فيقول له: يا بني، كموتك ثياباً حيث لا كنت تقدر أن تكسو نفسك، وأسقيتك شراباً ولقيتك حين كنت صغيراً عاجزاً، فكم من فاكهة عتيبت على منها فابتعتها لك، حسبك ما ترى من هول فزع يوم القيامة، وسينات أبيك كثيرة، فتحمل على منها ولو سينة واحدة فتخفف عني، أو تعطيني حسنة واحدة تزيد بها ميزاني، فيفر منه الولد ويقول: أنا أحوج منك إليها، وكذلك تفعل الفصيحة والصاحبة، وهو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ فَوَصَّيَّتْهُ الَّتِي تُوْوِيهِ﴾. وقد ورد الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: ﴿يَحْشُرُ النَّاسَ عَرَاةً، قَالَتْ عَائِشَةُ: وَسَوَاءٌ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَقَالَ: لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يَغْنِيهِ﴾، يريد أن شدة الهول، وعظم الكرب يغنيهم أن ينظر بعضهم إلى بعض.

فإذا استقرَّ الناس في صعيد واحد طلعت عليهم محابة سوداء، فأمطرتهم صحائف منشرة، فإذا صحيفة المؤمن ورقة ورد، وصحيفة الكافر ورقة سدر، والكل مكتوب، وتتطاير الصحف، فإذا هي تقع يمين المؤمن وشمال الكافر، وهو قوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾، ولو ظل مطوياً لم يجد أن ينشره من تزامم الخلق، وتعلق بعضهم ببعض. وحكى عن بعض السلف من أهل التصنيف أن الحوض يورد بعد جواز الصراط، إلا السبق الجسور، وفيه هلاك أكثر الخلق، والسبعون ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير عذاب ولا حساب، لا يرفع لهم ميزان ولا يأخذون صحفاً، وإنما هي براءة مكتوب فيها: (لا إله إلا الله محمد رسول الله، هذه براءة فلان بن فلان، قد غفر الله له وسعد سعادة لا شقاء بعدها أبداً) فما من شيء أسر من ذلك اليوم، وذلك المقام.

والرسل يومئذ على المنابر، والعلماء والأولياء على منابر صغار
دونهم، ومنبر كل واحد منهم على قدره، والعالمون العاملون على كراسي
من نور، والشهداء والصالحون كقراء القرآن والمؤمنين كلهم على كئبان
من المسك، وهذه الطائفة العامة أصحاب الكراسي الذين يطلبون الشفاعة
من آدم ونوح على نبينا وعليهما الصلاة والسلام، حتى ينتهوا إلى رسول
الله ﷺ.

وكل مذكور يأتي شخصه يوم القيامة، فقد جاء في الخبر أن القرآن
يأتي يوم القيامة في صورة رجل حسن الخلق، فيَشْفَعُ ويُشْفَعُ، والإسلام
مثله فيختصم ويخاصم، وقد ذكرنا حكاية الإسلام مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه
في إحياء علوم الدين، وبعد مخاصمته يتعلق به من يشاء الله، فيهوى بهم
إلى الجنة، وكذلك تأتي الدنيا في صورة عجوزة شمطاء أقبح ما تكون،
فيقال للناس: تعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ بالله من هذه، فيقال لهم: هذه
الدنيا التي كنتم تتحاسدون عليها، وتتباغضون فيها، وتتهاجرون لأجلها،
كذلك تأتي الجنة كأنها عروس تزف، والمؤمنون حولها قد أحذقوا بها،
وهي أحسن ما تكون، وتحوط بها كئبان المسك والكافور، عليها نور
يتعجب منها كل من في الموقف حتى تدخل بهم الجنة.

فانظر رحمك الله إلى جود القرآن، والإسلام.

ومرّد الكتاب، وقصدنا في ذلك الأمر الاختصار، لسلوك سبيل
السنة، ولا يلتفت إلى البدع الطارئة على الشرط المظهر من شياطين الأوس
والجن.

نسأل الله سبحانه وتعالى السلامة والعظمة، والتوفيق من الخلل
والخطأ، والزيادة والزلل، إله ولي الإجابة، ومولى الامتنان، الحمد لله
على الستمام، والصلاة والسلام على محمد المظلل بالقمم، رسول الرب
الملك السلام، المفضل على آله وصحبه الكرام، ما انطوت الليالي والأيام.

فهرس الكتاب

الصفحة	الموضوع
3	قرآن كريم.....
5	مقدمة وأهداف الكتاب.....
	1- كتاب الكشف والتبيين
	فى غرور الخلق أجمعين
28	"تحليل وفهم وتبصير"
30	أولاً : نماذج المخطوطة
38	ثانياً : مضمون ومفهوم النص
43	الصف الأول من المغرورين.....
48	الصف الثانى من المغرورين.....
52	الصف الثالث من المغرورين.....
55	الصف الرابع من المغرورين.....
	2- كتاب منهاج العابدين
60	"تحليل وفهم وتبصير"
62	أولاً : نماذج المخطوطة.....
71	ثانياً : مضمون ومفهوم النص.....
76	الفصل الأول : عقبة العلم والمعرفة.....
80	الفصل الثانى : عقبة التوبة.....
84	الفصل الثالث : عقبة العوائق.....
84	المبحث الأول : عائق الدنيا.....
86	المبحث الثانى : عائق الخلق.....
89	المبحث الثالث : عائق الشيطان.....

95	المبحث الرابع : عائق النفس.....
111	الفصل الرابع : عقبة العوارض.....
111	المبحث الأول : الرزق.....
113	المبحث الثاني : الأخطار.....
..	
115	المبحث الثالث : القضاء.....
116	المبحث الرابع : الشدائد.....
118	الفصل الخامس : عقبة البواعث.....
122	الفصل السادس : عقبة القوادح.....
131	الفصل السابع : عقبة الحمد والشكر.....
3- كتاب الدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة	
138	"تحليل وفهم وتبصير"
140	أولاً : نماذج المخطوطة.....
150	ثانياً : مضمون ومفهوم النص.....
150	1- الموت الدنيوى.....
164	2- حياة البرزخ والمحشر.....
191	فهرس الكتاب.....

أعمال الدكتور خالد حربى

- 1- الرازى للطبيب وأثره فى تاريخ الطبعة الأولى، ملتقى الفكر، العلم العربى. الإسكندرية 1999.
- 2- نشأة الإسكندرية وتواصل نهضتها الطبعة الأولى، ملتقى الفكر، العلمية. الإسكندرية 1999.
- 3- بُرء ساعة للرازى الطبعة الأولى، ملتقى الفكر، (دراسة وتحقيق). الإسكندرية 1999.
- 4- خلاصة السداوى بالغذاء الطبعة الأولى، ملتقى الفكر، والأعشاب. الإسكندرية 1999. الطبعة الثانية، 2000 توزيع مؤسسة الأهرام.
- 5- الأسس الأبستمولوجية لتاريخ الطبعة الأولى، دار الثقافة العلمية، الطب العربى. الإسكندرية 2002.
- 6- الرازى فى حضارة العرب، الطبعة الأولى، دار الثقافة العلمية، (ترجمة، وتقديم وتعليق). الإسكندرية 2002.
- 7- سر صناعة الطب للرازى الطبعة الأولى، دار الثقافة العلمية، (دراسة وتحقيق). الإسكندرية 2002.
- 8- كتاب التجارب للرازى الطبعة الأولى، دار الثقافة العلمية، الإسكندرية 2002.
- 9- كتاب جراب المجربات وخزانة الطبعة الأولى، دار الثقافة العلمية، الأطباء للرازى (دراسة وتحقيق). الإسكندرية 2002.

- 10- العولمة بين الفكرين الإسلامى والطبعة الأولى، منشأة المعارف،
والغربي "دراسة مقارنة". الإسكندرية 2003.
- 11- المدارس الفلسفية فى الفكر الطبعة الأولى، منشأة المعارف،
الإسلامى (1)، "الكندى والفارابى" الإسكندرية 2003.
رؤية جديدة.
- 12- الأخلاق بين الحلال والحرام، الطبعة الأولى، منشأة المعارف،
والصواب والخطأ. الإسكندرية 2003.
- 13- العولمة وأبعادها ضمن مجلد "رسالة المسلم فى
حقبة العولمة" الصادر عن وزارة
الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة
قطر، رمضان 1423 هـ، نوفمبر
2003.
- 14- دور الإستشراق فى موقف دار الثقافة العلمية، الإسكندرية،
الغرب من الإسلام وحضارته 2003.
(بالإنجليزية).
- 15- شهيد الخوف الإلهى، الحسن الطبعة الأولى، دار الوفاء،
البصرى. الإسكندرية 2003.
- 16- بنية الجماعات العلمية العربية الطبعة الأولى، دار الوفاء،
الإسلامية. الإسكندرية 2003.
- 17- علوم الحضارة الإسلامية وأثرها الطبعة الأولى، دار الوفاء،
فى الآخر. الإسكندرية 2004.

- 18- مقالة في النقرس للرازي الطبعة الأولى، دار الوفاء،
(داسة وتحقق). الإسكندرية 2004.
- 19- التراث المخطوط: رؤية في الطبعة الأولى، دار الوفاء،
التبصير والفهم (1) علوم الدين لحجة الإسكندرية 2004.
الإسلام أبى حامد الغزالي
- 20- التراث المخطوط: رؤية في الطبعة الأولى، دار الوفاء،
التبصير والفهم (2) للمنطق. الإسكندرية 2004.

المسور، كـبعض الإنسان كاتب، فهي المحصورة الجزئية، أو تتميز كلية بذكره، ككل إنسان حيوان، وإما أن تكون مُهملة، "كالإنسان كاتب" وهي في قوة الجزئية لتحقيقها فيها، فذلك أربع. وكلها إما موجبة أو سالبة، فصارت ثمانية، وينبـه على ذلك حيث يقول:

وإن على التعليق فيها قد حكم .: فإنها شرطية وتنقسم أيضاً إلى
شرطية متصلة ومثلها .: شرطية منفصلة.

فالقضية الشرطية: هي التي يحكم فيها التعليق، أي وجود أحد قضاياها معلق على وجود الآخر، أو على نفيها، وهي قسمان: متصلة، ومنفصلة، والجزء الأول منها يُسمى مقدما، والثاني تالياً، والمتصلة هي التي يحكم فيها بلزوم قضية أخرى، وهي التي توجب اللازم بين جزئياتها، نحو: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ ولقولنا: إن كانت الشمس طالعة فالنهار وموجود، فجزءاها يوجد بينهما تلازم. والمنفصلة، هي التي يُحَكَم فيها بامتناع اجتماع قضيتين فأكثر في الصدق وهي التي جزءاها متعاندان، نحو: العلم إما قديم أو حادث، وزيد إما حي أو ميت.

وهي ثلاثة أقسام: مانعة الجمع، نحو: هذا العدد إما مساوٍ لذلك، أو أكثر، فيمتنع اجتماعهما، ويمكن الخلو عنهما بأن يكون أقل، ومانعة الخلو، نحو: إما أن يكون زيد في البحر، وإما أن لا يغرق، فيمكن الجمع بينهما بأن يكون في البحر، ولا يغرق، ويمتنع خلو عنهما ألا يكون في البحر ويغرق. ومانعتهما كالعدد إما زوج أو فرد، فيمتنع اجتماع الزوج والفرد في عدد واحد، ويمتنع خلو عنهما.

ولما فرغ المؤلف من القضايا وأقسامها، طفق يتكلم على أحكامها، فمن ذلك التناقض وهو اختلاف قضيتين بالإيجاب والسلب، بحيث يقتضي لذاته

أن تكون إحداهما صادقة والأخرى كاذبة.. فالتناقض عبارة عن اختلاف قضيتين في الصدق والكيف، وهو الإيجاب والسلب، فشرطه أن لا يختلفا إلا بالإيجاب والسلب، ولا بد أن تكون إحدى القضيتين صادقة والأخرى كاذبة.

ثم يتكلم في فصل آخر على حكم من أحكام القضايا، وهو "العكس المستوي"، فالعكس المستوي هو تحويل جزئي القضية مع بقاء الصدق، والكيف والكم إلا الإيجاب الكلي، فيعوض عنه الجزئي. وفي ذلك قال في أرجوزته:

مع بقاء الصدق والكيفية . . . والكم إلا الموجبة الكلية

فموضوعها الموجبة الجزئية . . . والعكس لازم لغير ما وجد .

فالعكس لا يكون إلا في القضايا، ولا للترتيب الطبيعي، وإليه الإشارة بقوله: "والعكس في مرتب البيت احترازاً من المفصلات، فإن تحويل طرفيها ليس عكساً؛ لأن كلاً من طرفيها صالح لأن يكون مقدماً أو تالياً.

ولما فرغ من الكلام على ما يتعلق بمبادئ التصديقات، شرع في الحديث عن مقاصد التصديقات، وهي "القياس وما يتعلق به". فالقياس: قول مؤلف من قضايا مستلزم بالذات لقول آخر، وهو قسمان: الأول: ما يشتمل على النتيجة أو على نقيضها بالقوة، ويسمى افتراضياً وحملياً، الثاني: ما يشتمل على النتيجة أو على نقيضها بالعقل، ويسمى استثنائياً وشرطياً.. فالقياس عند المناطق، هو المركب من قضايا يلزم لذاته قول آخر، والافتراضي منه، ما كان مشتقاً على النتيجة أو نقيضها بالقوة، نحو: العالم متغير، وكل متغير حادث. يقول ناظماً:

فإن ترد تركيبه فركباً .∴ مقدماته على ما وحياً
ورتب المقدمات وانظرا .∴ صحيحها من فاسد مختبراً
فإن لازم المقدمات .∴ بحسب المقدمات آت.
فتركيب القياس لا بُدُّ أن يشتمل على مقمنتين صغرى وكبرى،
والصغرى مندرجة في الكبرى أي داخلة فيها، وفي هذا المعنى قال:
وما من المقدمات صغرى .∴ فيجب اندراجها في الكبرى
وذات حد أصغر صفراهما .∴ وذات حد أكبر كبراهما
وأصغر فذاك ذو اندراج .∴ ووسط يلغى لذي الإنتاج.
أي لا بد أن تكون الكبرى أعم من الصغرى، وإلا لم يحصل للزوم، إذ
لم يلزم من الحكم على الأعم الحكم على الأخص، لا العكس، ثم إن
الصغرى وهي المشتملة على موضوع النتيجة المُسمَّى بالحد الأصغر،
والكبرى هي المشتملة على محمولها المُسمَّى بالحد الأكبر، والطرف
المكرر المشترك بينهما، والحد الأصغر يسمى الحد الأوسط، وهو الجامع
بينهما، والحد الأصغر مندرج في الأكبر، وعند الإنتاج يُلغى الحد الأوسط.
وعن أشكال القياس قال:

الشكل عند هؤلاء الناس .∴ يُطلق على قضيتي قياس
من غير أن تعتبر الأسوار .∴ إذ ذاك بالضرب له يُعْطَل.
يعني أن المناطق اصطلاحوا على تسمية قضيتي القياس من غير اعتبار
الأسوار شكلاً، ومع اعتبارها ضرباً أي نوعاً من أنواع الشكل... والأشكال
بحسب الحد المكرر (الأوسط) أربعة أقسام؛ لأنها إما أن يكون موضوعاً في
الكبرى محمولاً في الصغرى، كالإنسان حيوان، والحيوان حُلث، فهو
الشكل الأول المسمي بالانظم الكامل؛ لأنه أقواها، وهي ترجع إليه في

الحقيقة. وإن كان محمولاً فيهما، كالإنسان حيوان، والفرس حيوان، فهو الشكل الثاني القريب من الأول لكونه وافقه في طرف الحمل الذي هو أقوى من طرف الوضع. وإما أن يكون موضوعاً فيهما كالإنسان حيوان، والإنسان حادث، فهو الشكل الثالث لموافقته من طرف الوضع. وإما أن يكون موضوعاً في الصغرى محمولاً في الكبرى، أى عكس الأول، كالإنسان حيوان، والكاتب إنسان، فهو الشكل الرابع، وهو أضعفها لبعده عن الأول، لكونه لم يوافقه لا في حمل، ولا وضع، وهذا معنى قوله:

فحيث هذا النظام يعدل .: ففساد النظام

أما الأول فشرطه الإيجاب في صغره .: وإن تكن كلية كبراه
والثاني إن تختلف في الكيف مع .: كلية الكبرى له شرط وقع
والثالث الإيجاب في صغرها .: وإن ترى كلية إحداها
ورابع عدم جمع.... .: إلا بصورة ففيها نسبتين
صغرها موحية جزئية .: كبراهما سالبة كلية .

أي إذا عدل عن هذه الأشكال، وهذا الترتيب فذاك فاسد. ويقول:

ومنه ما يدعي بالاستثناء .: يُعرف بالشرطي بلا استثناء .

ومن القياس، القياس الاستثنائي، وهو المعروف بالشرطي، لكونه مركباً من قضايا شرطية، وهو المشتمل على النتيجة أو نقيضها بالفعل، نحو: لو كان النهار موجوداً لكانت الشمس طالعة، ولو لم يكن النهار موجوداً ما كانت الشمس طالعة، فالنتيجة في الأخير ونقيضها في الأول مذكوران بالفعل، وقولنا: "له بالقوة، احترازاً من الاقتراني".

أما القياس المنفصل: ما كان مؤلفاً من قضائين منفصلين، وهي المتعاندة، وهي على ثلاثة أقسام: مانع الجمع والرفع وهو الحقيقي، ومانع جمع ومانع

رفع، فإن كان حقيقياً وهو مانع الجمع، والخلو لخلو العدد إما زوج أو فرد، أنتج وضع كل من طرفيه رفع الآخر لامتناع الجمع، والعكس لامتناع الخلو، ولا كان مانع جمع انتج، وضع أحد الطرفين رفع الآخر لامتناع الجمع بخلاف العكس لإمكان الخلو، وإن كان مانع الخلو فعكسه، أي أنتج رفع أحدهما وقع الآخر لامتناع الخلو لا العكس لإمكان الجمع، وفي هذا قال:

وإن يكن منفصلاً فوضع ذا .: ينتج رفع ذاك والعكس كذا
وذاك في الأخص ثم إن يكن .: مانع جمع فوضع ذا تركن
رفع لذلك دون عكس وإذا .: مانع رفع كان فهو عكس ذا.

أي: وإن كان القياس الشرطي منفصلاً، فوضع كل من طرفيه منتج رفع الآخر، والعكس إن كان حقيقاً، وهذا معنى قوله، وذاك في الأخص، وإن يكن مانع جمع، فوضع كل، يوجب وضع الآخر دون عكس، أي لا يوجب رفع كل وضع الآخر لجواز الخلو، وإن كان مانع رفع فهو عكس مانع الجمع كما تقدم.

وأعد المؤلف فصلاً في "الواحق القياس"، فمن القياس قسم يُسمى بالقياس المركب، ويُسمى بذلك لتركيبه من حجج متعددة، وتقسم الحجة باعتبار مادتها، فإن الحجة قسمان عقلية وعقلية، والحجة العقلية خمسة أقسام: برهانية، وجدلية، وخطابية، وشعرية، وسفسطائية، وتسمى المغالطة، وإلى هذا كله أشرنا بقولنا: "وحجة عقلية عقلية، وأقسام هذا خمسة جليلة". فالخطابية، ما تألف من مقدمات مقبولة، وهي قضايا تُؤخذ مما يعتد فيه الصدق، وليس نسبي، والغرض من الخطابية ترغيب السامع فيما ينفعه. والشعر: ما تألف من مقدمات مخيلة لترغيب السامع في شيء،

والغرض من الشعر تأثير النفس.. والجدل: ما تألف من مقدمات مشهورة، وهو ما اعترف بها لجمهور مصلحة عامة، نحو: هذا ظلم، وكل ظلم قبيح، فهذا قبيح، وهذا كاشف لعورته، فهو مذموم، فهذا مذموم، والغرض من الجدل إما إقناع قاصر عن البرهان، أو ألزم الخصم ودفعه.

والسفسطة: ما تألف من مقدمات شبيهة بالحق وتُسمى بالمغالطة، كقولنا في صورة فرس في حائط: هذا فرس، وكل فرس صهال، فهذا صهال. أو شبيهة بالمقدمات المشهورة، وتُسمى مشاغبة.. والخاص من أقسام الحجة، البرهان وهو ما تألف من مقدمات يقينية، وهو المفيد للعلم اليقيني، فيه قال:

أجلها البرهان ما ألف من . . مقدمات باليقين تعترن

من أوليات مشاهدات . . مجربات موثرات

وحدسيات ومحسوسات . . فتلك جملة اليقينات .

أي: أن أجل الحجج الخمس البرهان، وهو ما تتركب من مقدمات يقينية، ثم ذكر أن اليقينات ستة أولها: الأوليات، وتُسمى البديهيات، وهو ما يجزم به العقل لمجرد تصوّر طرفيه، نحو: الواحد نصف الاثنين، والكل أعظم من الجزء.

وثانيها: المشاهدات الباطنية، كجوع الإنسان وعطشه. وثالثها: التجريبات: وهو ما يُجعل من العادة. ورابعها: المتواترة: وهو ما يحصل بنفس الأخبار تواتراً، كالعلم بوجود مكة، وبغداد لمن لم يرها.. خامسها: الحدسيات: وهي ما يجزم به العقل لترتيب دون ترتيب التجريبات مع القرائن، كقولنا: نور القمر مستفاد من نور الشمس.

سادسها: المحسوسات: وهو ما يُحصّل بالحس الظاهر، يعني بالمشاهدة: كالنار حارة، والشمس مضيئة، فهذه جملة اليقينات التي يتألف البرهان منها.

فهرس الكتاب

الصفحة	الموضوع
3	قرآن كريم.....
5	مقدمة وأهداف الكتاب.....
	1- الرسالة الشمسية في القواعد
29	المنطقية، للقروني
31	أولاً : نماذج المخطوطة
40	ثانياً : مضمون ومفهوم النص
40	الفصل الأول : ماهية المنطق.....
43	الفصل الثاني : في المعاني المفردة.....
45	الفصل الثالث : مباحث الكلّي والجزئي.....
48	الفصل الرابع : التعريفات، وفيه فصول.....
49	الفصل الأول : في القضية الحملية، وفيه أربعة مباحث..
49	المبحث الأول : في أجزاء القضية الحملية، وفيه أربعة مباحث.....
49	المبحث الأول : في أجزاء القضية الحملية وأقسامها.....
50	المبحث الثاني : في تحقيق المحصورات الأربع.....
50	المبحث الثالث : في العدول والتحصيل.....
51	المبحث الرابع : في القضايا الموجهة.....
54	الفصل الثاني : في أقسام المترطية.....
56	الفصل الثالث : في أحكام القضايا.....
56	المبحث الأول : في التناقض.....
58	المبحث الثاني : في العكس المستوي.....

60	المبحث الثالث : فى عكس النقيض.....
62	المبحث الرابع : فى لزوم الشرطيات.....
62	مقالة فى القياس.....
62	المبحث الخامس : فى المختلطات.....
66	المبحث السادس : فى الاقترانيات الكائنة من الشرطيات
68	الفصل الرابع : فى قياس الاستثناء.....
69	الفصل الخامس : فى لواحق القياس.....
70	الخاتمة.....
73	2- علم المنطق للسنوسى
	أولاً : نماذج المخطوطة.....
	ثانياً : مضمون ومفهوم النص.....
84	مبادئ التعريفات والحجج
161	القياس.....
179	3- شرح السلم المرونى فى علم المنطق للأخضرى
181	أولاً : نماذج المخطوطة.....
190	ثانياً : مضمون ومفهوم النص.....
204	فهرس الكتاب.....

أعمال الدكتور خالد حربى

- 1- الرازى الطبيب وأثره فى تاريخ الطبعة الأولى، ملتقى الفكر، العلم العربى. الإسكندرية 1999.
- 2- نشأة الإسكندرية وتواصل نهضتها الطبعة الأولى، ملتقى الفكر، العلمية. الإسكندرية 1999.
- 3- بُرء ساعة للرازى الطبعة الأولى، ملتقى الفكر، (دراسة وتحقيق). الإسكندرية 1999.
- 4- خلاصة التداوى بالغذاء الطبعة الأولى، ملتقى الفكر، والأعشاب. الإسكندرية 1999. الطبعة الثانية، 2000 توزيع مؤسسة الأهرام.
- 5- الأسس الأبيستمولوجية لتاريخ الطبعة الأولى، دار الثقافة العلمية، الطب العربى. الإسكندرية 2002.
- 6- الرازى فى حضارة العرب، الطبعة الأولى، دار الثقافة العلمية، (ترجمة، وتقديم وتعليق). الإسكندرية 2002.
- 7- سر صناعة الطب للرازى الطبعة الأولى، دار الثقافة العلمية، (دراسة وتحقيق). الإسكندرية 2002.
- 8- كتاب التجارب للرازى الطبعة الأولى، دار الثقافة العلمية، الإسكندرية 2002.
- 9- كتاب جراب المجربات وخزانة الطبعة الأولى، دار الثقافة العلمية، الأطباء للرازى (دراسة وتحقيق). الإسكندرية 2002.

- 10- العولمة بين الفكرين الإسلامى للطبعة الأولى، منشأة المعارف،
والغربى "دراسة مقارنة". الإسكندرية 2003.
- 11- المدارس الفلسفية فى الفكر الطبعة الأولى، منشأة المعارف،
الإسلامى (1)، "الكندى والفارابى" الإسكندرية 2003.
رؤية جديدة.
- 12- الأخلاق بين الحلال والحرام، الطبعة الأولى، منشأة المعارف،
والصواب والخطأ. الإسكندرية 2003.
- 13- العولمة وأبعادها ضمن مجلد "رسالة المسلم فى
حقبة العولمة" الصادر عن وزارة
الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة
قطر، رمضان 1423 هـ، نوفمبر
2003.
- 14- دور الإستشراق فى موقف دار الثقافة العلمية، الإسكندرية،
الغرب من الإسلام وحضارته 2003.
(بالإنجليزية).
- 15- شهيد الخوف الإلهى، الحسن الطبعة الأولى، دار الوفاء،
البصرى. الإسكندرية 2003.
- 16- بنىة الجماعات العلمية العربية الطبعة الأولى، دار الوفاء،
الإسلامية. الإسكندرية 2003.
- 17- علوم الحضارة الإسلامية وأثرها الطبعة الأولى، دار الوفاء،
فى الآخر. الإسكندرية 2004.

- 18- مقالة في النقرس للرازي الطبعة الأولى، دار الوفاء،
(دراسة وتحقيق). الإسكندرية 2004.
- 19- التراث المخطوط: رؤية في الطبعة الأولى، دار الوفاء،
التبصير والفهم (1) علوم الدين لحجة الإسكندرية 2004.
الإسلام أبى حامد الغزالي
- 20- التراث المخطوط: رؤية في الطبعة الأولى، دار الوفاء،
التبصير والفهم (2) المنطق. الإسكندرية 2004.

Bibliotheca Alexandrina



0516446